فرحـان بُـلـبُـل

القرى تصعد إلى القمر

في فصلين

1979

مقتبسةٌ عن مسرحية (دائرة الطباشير القوقازية) تأليف: برتولد بريخت،
والمقتبسة عن قصة تروى عن النبي سليمان الحكيم.

الشخصيات

آ – في اجتماع الجمعية

1– الحاج أبو العطا	رئيس الجمعية التعاونية
2– حسنة	زوجة الحاج أبي العطا
3– حمدان	فلاح
4– سلمى	زوجة حمدان
5– محمود الغِبِش	فلاح
6– أحمد	فلاح
7– الآغا	مالك القرية السابق
8– الأجير الأول	أجير عند الآغا
9– الأجير الثاني	أجير عند الآغا

ب – في الحكاية

10– الراوي الأول	
11– الراوي الثاني	
12– كاظم باشا	الوالي
13– الوزير	وزير كاظم باشا
14– الطبيب	طبيب أسرة كاظم باشا
15– نَوْزات خانم	زوجة كاظم باشا
16– هند	خادمة في قصر كاظم باشا
17– خادمة	في قصر كاظم باشا
18– خادم	في قصر كاظم باشا
19– تامر	خطيب هند
20– المرأة العجوز	
21– الجاويش	
22– الجندي الأول	
23– الجندي الثاني	

24- الأبله	ابن العجوز
25- حكمت	مساعد الوزير
26- سَلُّوم	فلاح وصديق آدم
27- آدم	فلاح
28- الفلاح الأول	
29- الفلاح الثاني	
30- الفلاح الثالث	
31- بالوظ	معاون القاضي
32- جُلباط بن شاهْناه	
33- شَحُّود بن مْهيد المصطفى	
34- الملاّك	
35- الفلاح	
36- الوالي الأكبر	
37- معاون الوالي الأكبر	

الفصل الأول

(يدخل الممثلون من أحد طرفي المسرح وهم يغنون
أغنية شعبية. ويتصرفون بحيوية وإشراق كأنهم في
احتفال شعبي أكثر مما هم على خشبة المسرح)
(المسرح خالٍ من أية قطعة ديكور)
(من الأغنية يبدأ حوار الممثلين مع الجمهور)

ممثل : يا سادة يا كرام. بعد التحية والسلام، والسؤال عن خاطركم وصحتكم، مساء الخير.

ممثل : نحن أعضاء فرقة... سنقدم لكم حكايةً بسيطة من حكايات الناس نسميها:

ممثل : القرى تصعد إلى القمر.

ممثل : الكاتب اقتبسها عن مسرحية (دائرة الطباشير القوقازية).

ممثل : سنكون سعداءَ إذا أمتعناكم بمسرحيتنا هذه.

ممثل : لكننا نكون سعداء أكثر إذا أثَرْنا أذهانَكم ودعوناكم إلى التفكير معنا.

ممثل : نتمنى أن يسأل كلُّ منكم نفسه عن الحلول التي يراها للمشاكل المعروضة في المسرحية.

ممثل : وأن يتهامس مع ضميره حول مساهمته الشخصية في هذه الحلول.

ممثل : واحدٌ منكم قد يقول:

ممثل : أنا معلم. همّي مع أولاد المدرسة ومصروف البيت. لا علاقة لي بالعمال.

ممثل : واحد آخر قد يقول:

ممثل : أنا فلاح مقطوع من شجرة. لا علاقة لي بالمعلمين.

ممثل : واحد ثالث قد يقول:

ممثل : أنا موظف. حياتي تكفيني، ومشاكلي فوق رأسي. ما شأني بالعمال والفلاحين؟

ممثل : إذا انفصلنا عن بعضنا البعض على هذا الشكل، ظل كلُّ واحد منا يعيش داخل قهره، ويسدُّ على نفسه الأبواب.

ممثل : فالحياةُ التي نعيشها متشابكة. وما يصيبك يصيب جارَك.

ممثل : ولأن حياتنا متشابكة، تعالوا نذهب معاً، يا سادة يا كرام، إلى قرية من قرانا المنتشرةِ على أرض الوطن.

ممثل : طبعاً، في القرية فلاحون.

ممثل : نحن نكتب ونتحدث عن الفلاحين باعتزاز. ونرفع رؤوسنا بهم. ونقول عنهم في الصحف ومجلات الحائط وفي الإذاعة والتلفزيون:

ممثل : الفلاحون أساسُ الإنتاج. هم العاملون المجددون. بعرق جبينهم يسقون الأرض.

ممثل : لكننا ننسى هؤلاء الفلاحين. ونتركهم في شقائهم.

ممثل : كثيرٌ من المثقفين ورجال الفكر عندنا في العاصمة والمدن الكبيرة، أصلُهم من الفلاحين.

ممثل : كثيرٌ من عمالنا في معاملنا من الفلاحين.

ممثل : كثيرٌ من موظفينا الكبار والصغار، كانوا فلاحين.

ممثل : القليلُ القليلُ من هؤلاء مازالوا يخدمون قراهم، ويعملون على جعلها متطورةً كالمدينة.

ممثل : بعضٌ منهم يشتاقون إلى جو القرية الحالم والأشجار الوارفة. أو يَحُنون إلى حبيبةٍ صغيرةٍ ساروا معها عند الغروب.

ممثل : لكن أكثر هؤلاء غرقوا في المدينة ونسوا القرية.

ممثل : لهؤلاء وهؤلاء، لأولئك وأولئك، ولمن بيده الحلُّ والأمر، سنقدم هذه المسرحية.

ممثل : اسم قريتنا... ما اسمها؟

ممثل : اسمُ قريتنا ضائعٌ على خارطة الوطن.

ممثل : وعندما تضيع الأسماء على خارطة الوطن، يصبح الإنسان مهدور الكرامة ممسوحَ الشخصية.

ممثل : ومع أن قريتنا مهجورة ضائعة الاسم، فإن سكانها من أبناء هذا الوطن.

ممثل : تعالوا نذهب إليهم لنرى: ماذا يفعلون؟

(يبدأ الممثلون بارتداء ألبسة
فلاحية، وهم يغنون أغنية شعبية)
(يصبح المسرح مكتب جمعية تعاونية .
الجميع يتصايحون معاً بعبارات حادة
مثل: هادا ما بصير. ما معك حق)

أبو العطا : (وهو رئيس الجمعية) بس. بس. اسكتوا حتى نتفاهم.

سلمى : وَزِّع البذار بالعدل نسكت.

أبو العطا : اجتماع اليوم ليس من أجل البذار.

سلمى : إه. إذن مبروك بالعروس يا حاج أبا العطا.

أبو العطا : أسكِتْ زوجتَك يا حمدان.

حمدان : هِهْ.

حسنة : (وهي العروس) طقّي. عروس ومهري ثلاثون ألفاً.

سلمى : مسكينة يا حسنة.

محمود : (يجلس بعيداً غير مهتم بالاجتماع) ابدأ الاجتماع ياحاج وخَلِّصْنا.

أبو العطا : (متمهلاً ومهيئاً نفسه لبدء الاجتماع) الاجتماع اليوم للبحث في تسويق موسم البندورة.

محمود : معناها الاجتماع جد.

حمدان : ماذا تقترح يا حاج؟

أبو العطا : أحسنُ شيء، نفعل ما فعلناه في الموسم السابق.

سلمى : يعني، نبيع الموسمَ للتجار؟

أبو العطا : صحيح أنهم يدفعون لنا سعراً أقل من سعر السوق، لكن نربح الوقت ولا يضيع شيء من المحصول.

سلمى : يخزي العين. اقتراحٌ يأخذ العقل.

حمدان : من هم المشترون؟

أبو العطا : ناس أوادم. اتفقت معهم على سعر جيد.

حمدان : من هم؟

سلمى : من يكونون غيرَ الآغا وشركائه التجار؟ مثل كل سنة.

حمدان : لماذا لا نبيع الموسم بأنفسنا يا حاج؟

أبو العطا : كل مرة تقترح هذا الاقتراح، وتعرف أنه اقتراح فاشل.

أحمد : (إلى حمدان) إذا كنتَ تريد الخسارة لنفسك، فنحن لا نريدها.

محمود : هيه. بين أجرة التحميل وأجرة السيارات وثمن الصناديق والنقليات، يطير نصف المحصول.

حمدان : لماذا يحدث ذلك يا محمود؟

محمود : ألله أعلم.

حمدان : أليس تسويق المحصول من مهمة الجمعية؟

أبو العطا : هذا ما أقوم به.

حمدان : لصالحنا أم لصالح الآغا والتجار؟

أحمد : بدأت تهاجم الآغا؟

حمدان : أريد أن أفهم. لماذا نبيع بضاعتنا بعشْرة، ويشتريها الناس في السوق بخمسين؟

محمود : تجارة يا حمدان. تجارة.

حمدان : لماذا يكسدُ محصولُنا ويتلف إذا أردنا بيعَه بأنفسنا، ويطير مثلَ النسيم إذا بعناه للآغا؟

أبو العطا : الآغا يملك سيارات نقل.

حمدان : لماذا لا يوجد في الجمعية سيارة لنقل المحصول؟

محمود : تقصير من رئيس الجمعية.

أحمد : الحاج أبو العطا غير مقصر.

حمدان : كل عمل الجمعية تقصير. أين الجرار؟

أبو العطا : هوه. عدنا إلى الجرار؟

محمود : معلوم. اشتريناه ومازلنا ندفع ثمنه مع الفوائد، وهو معطل منذ سنتين.

أبو العطا : أتراني مصلِّحَ جرارات؟

حمدان : نزلتَ إلى المدينة عشرين مرة على حساب الجمعية لترى الجرار. كل مرة تشتري أغراضاً لدكانك وسماداً لأرضك. ثم تقول لنا: الجرار في التصليح.

سلمى : واشترى جهاز حسنة.

حسنة : طقي.

أبو العطا : حظنا مع الجرار سيء. ماذا بيدي؟

سلمى : حظنا مع هذا الجرار سيء، أم الذي اشترى الجرار متفق مع الآغا؟

أحمد : ما دَخْلُ الآغا هنا؟

سلمى : اشتغل الجرار شهرين فقط. شهرٌ منها في أرض الحاج أبي العطا. وبقدرة قادرٍ تعطَّل.

حمدان : بعدها مباشرة، اشترى الآغا جراراً وصار يؤجره للجمعية بأعلى سعر.

محمود : أبو العطا يقول: نصيب.

حمدان : لو أن قريتنا وحدها على هذا الشكل لقلت: نصيب. لكنني زرتُ عدة قرى. في الشرق والغرب. في الشمال والجنوب. فوجدت أكثرَها مثلنا. في كل قرية آغا سابق أو ملاك أو تاجر كبير. وحالُهم كحالنا.

أحمد : هذا هو الموجود. وافعلْ ما تريد.

حمدان : لا عتب عليك يا أحمد. أنت زلمة الآغا.

محمود : ما أحلى أيام الآغا.

حمدان : تحنُّ إلى أيام الآغا يا محمود؟ أَرجِعْ إليه الأرض.

محمود : يا ليت. لا أرض ولا هم. ولاجمعية ولا غم.

سلمى : محمود الغِِبِِش ابن أم محمود يقول ذلك؟

محمود : هذه أرض يا سلمى؟ كومةُ حجارة تسمينها أرضاً؟

سلمى : أرضُنا ليست أحسن من أرضك.

حمدان : اشتغلْ فيها تتحسن.

محمود : أشتغلُ فيها مثلَ الجاموس ولا فائدة. ابني هرب منها إلى المدينة لأنها صغيرة وفقيرة. لماذا أعطاني القانون أرضاً بوراً وترك للآغا أحسنَ أراضيه؟

أبو العطا : لا تتعرضْ لقانون الإصلاح الزراعي.

محمود : تشنقني إذا تعرَّضتُ له؟

أبو العطا : القانون أنصفنا.

محمود : القانون أنصفنا؟

أبو العطا : ولا يجوز الكلام عليه.

محمود : القانون أعطى الآغا ثلاثمئة دونم سقياً. وزوجتَه ثلاثمئة دونم. وابنَه ثلاثمئة دونم. وابنتَه ثلاثمئة دونم. لم يبق

علينا إلا كلابُه وقططُه. وتقول: القانون أنصفنا؟

أبو العطا : أخذنا منه ثلاثَ قرى يا شيخ.

محمود : أرض بور كانت متروكة من غير زرع.

أبو العطا : المهم أنها أرض.

محمود : وماذا كانت النتيجة؟ كل فلاح أخذ قطعة أرض يابسة بحجْمِ علبة الكبريت وبدأ ينطح رأسه فيها. حصتُه من قرض المصرف الزراعي للجمعية لا تملأ كفَّ طفل. سعرُ كلفة الإنتاج، يا لطيف. ولكي لا يفسد المحصول نبيعه بسعر التراب. والذي يفلقني أكثر، أن معامل الكونسروة بنتْها الدولةُ لصالح الفلاح. ومع ذلك، بضاعتُنا تقف على بابها إلى قيام الساعة. وبضاعةُ الآغا والتجار تمرُّ على الطاير. والجمعية، ماشاء الله، يقودها الحاج أبو العطا إلى حضن الآغا.

أبو العطا : افعل مثلي تتحسن أحوالك.

محمود : أوصلتَنا إلى هنا يا حاج. لم يبق أمامي إلا أن أفعل مثلك. أؤجِّر أرضي للآغا وأشتغل فيها أجيراً من جديد، كما فعلتَ أنت وكما فعل ناصر الهوّاش وفرج المحمد وحمّود العاني. فلا أحمل همَّ الجرار ولا تسويقِ المحصول. هزمتَني أنت والآغا يا حاج. سأفعل مثلك.

سلمى : وتصير تأخذ حصتَك من البذار للآغا. وتأخذ قرضَ المصرف الزراعي للآغا. وتتزوج فتاةً بعمر بناتك بمهر ثلاثين ألفاً.

حسنة : طقي.

حمدان : افعل مثلي يا محمود.

محمود : أستولي مثلَك على أرض الآغا؟

أبو العطا : تكفينا مشاكلنا.

محمود : مجابهةُ الآغا ليست سهلة يا حمدان.

حمدان : لو حاربناه كلنا، فلن يستطيع الوقوف في وجهنا.

محمود : القانون يحميه. وهو أقوى منك.

حمدان : القانون معنا.

محمود : الآغا ليس ضعيفاً لأنه صبر عليك حتى الآن. حينما رآك تستولي على أرضه وتزرع فيها وتفلح، كان يضحك منك لأنك وحدك. برمشة عين يخلِّصُك الأرض ويأخذ كل تعبك، ويربّي بك القرية.

حمدان : لماذا لا تكون معي؟

محمود : أخاف يا حمدان.

حمدان : أنت... محمود الغِبش تخاف من الآغا؟

محمود : صرتُ أخاف. هذه الأيام حيَّرتني. والجميع يخافون. سيقتحم عليك الأرضَ ويرميك خارجها.

حمدان : (يحرك بلطته) أكسر رجله إن اقترب من بيتي.

(يدخل الآغا ووراءه أجيران)

الآغا : لماذا لا تترك لي أرضي يا حمدان؟

حمدان : آه... جاء الآغا بنفسه هذه المرة؟

الآغا : أجبني على سؤالي. من خمس سنوات سرقتَ أحسنَ قطعةٍ من أرضي.

حمدان : قل إني زرعتُها.

الآغا : اعتديتَ على أرضي.

أبو العطا : سيعيدها إليك يا آغا.

سلمى : لا تدخلْ بينهما يا حاج.

الآغا : الأرض أرضي بصكِّ القانون. بأيِّ حقٍّ تستولي عليها؟

حمدان : أرضٌ مهجورة. ضممتُها إلى أرضي الصغيرة الفقيرة. وجعلتها تنتج.

الآغا : ليست مهجورة. أنا أشتغل فيها.

حمدان : القطعة التي أخذتُها منك لم يكن يشتغل فيها أحد. وفيما بقي من الأرض يشتغل عمالك المياومون. أنت لا تشتغل أبداً.

أبو العطا : يا حمدان. الآغا ترك لنا أكثرَ من أربعة آلاف دونم. هل نستكثر عليه هذه القطعةَ الصغيرةَ التي بقيت له بالقانون؟

حمدان : وإلى هذه القطعة الصغيرة يأتي الخيرُ الوفير. بذارُ الآغا أحسنُ بذار. اسمُ الآغا أقوى اسم في المصرف الزراعي. في هذه القطعة الجرارُ ورأسُ المال. هذه القطعة الصغيرة تأكلنا لأنها الأقوى. حتى الجمعية التعاونية صارت في خدمته. يعني... كان آغا مكروهاً قبل القانون، صار آغا محبوباً معترَفاً عليه بصكِّ القانون.

أبو العطا : ما شأنك أنت؟ لك أرض وله أرض.

حمدان : شأني أن وجوده في القرية يتنافى مع وجودنا. لهذا، يجب أن نستولي على أرضه من جديد، حتى لو كانت شبراً واحداً.

الآغا : أتخالف القانون؟

حمدان : أفسّرُ القانون تفسيرَه الصحيح.

الآغا : هذا هو حال الفلاح. ينزل إلى المدينة ويتعلم كلمتين، ويظن نفسَه فيلسوفاً.

حمدان : يحقُّ لك أن تستفيد من أرضك في حالة واحدة.

الآغا : (ساخراً) ما هي؟

حمدان : أن تشتغل فيها مثلنا، بفأسك وذراعيك.

الأجير1 : الأمور ليست فلتانة. القانون يؤدِّبُك على تعدّيك.

أبو العطا : افهمْ يا حمدان. لا تجعل الأمور تصل إلى هذا الحد.

حمدان : ستصل الأمور إلى هذا الحد وأكثر. أنت، رئيس الجمعية المتواطئ مع الآغا، حطَّمتَ القرية وجعلتنا ننفر منك ومن الجمعية. أحمد صار زلمة الآغا.

أحمد : أنا أشتغل معه.

حمدان : (إلى الأجير الأول) وأنت؟ ألم تجعل عائلتَك تحارب عائلةَ محمود الغبش حتى تتمزقَ القرية ولا تقفَ في وجه الآغا؟

الأجير1 : اعتدَوْا علينا وضربوا عمي في الليل.

حمدان : عائلة محمود الغبش لم تفعل شيئاً. هذا هو الذي ضرب عمك. (يشير إلى الأجير الثاني)

الأجير2 : (بحدة) لا تقترب مني.

حمدان : أنت من خارج القرية. جاء بك الآغا كُرْباجاً لأهلها.

الأجير2 : كفاك تحرشاً بي.

حمدان : أين تفاهمُنا السابق مع بعضنا يا حاج؟ جعلَنا الآغا نكره بعضنا وننشغل عنه بخلافاتنا ومصالحنا الصغيرة. اشتراك بالقليل حتى يربح الكثير.

الأجير1 : وأنت تحرِّضُ عمالَ الآغا عليه.

حمدان : هذا واجبي. قلت لك ولزميلك أبي العناتر هذا ولأحمد: استولوا على أرض الآغا مع عماله الزراعيين. لكنكم خفتم منه لأنه يسهر في المدينة مع بعض الناس المهمين، ويُسيِّرُ مصالحَه بالرشوة حتى صار أقوى منا جميعاً. لا لأنه قوي. بل لأننا خفنا منه. وعاد يحاربُنا من جديد. ألم يُوقف الآغا شقَّ الطريق إلى قريتنا؟

أبو العطا : رئيس البلدية لم يوافق على الطريق.

حمدان : ألم يعرقل الآغا حفرَ البئر الأرتوازي حتى لا تشرب القرية؟

أبو العطاء : البئر ليس فيها ماء.

حمدان : والمدرسة؟ من حاول حرمانَ القرية منها حتى أنشأناها رغماً عنه؟

أحمد : كل شيء تضعه في ظهر الآغا؟

حمدان : ألم يقف الآغا ضد شراء الجمعية لسيارة نقل؟

أبو العطا : الجمعية ليس فيها مال. مشكلةُ الجرار لم نتخلص منها بعد.

حمدان : أرادنا أن نظل جائعين مقطوعين في هذه القرية حتى لا نتعلم كلمتين ولكي نظل معلقين به.

الآغا : كلُّ هذا الكلام لا ينفعك. الأرض أرضي بصك القانون. سأجبرك على تركها بقوة القانون.

حمدان : الأرض أرضي لأني أشتغل فيها. لوكنتُ أستطيع العمل في قطعةٍ أكبرَ لفعلت.

سلمى : سيكبر أولادنا يا آغا. والله العظيم، سوف نأخذ بقية أرضك.

الآغا : سأوقفك عند حدك. القوةُ معي.

حمدان : وفأسي التي أشتغل بها معي.

الآغا : الأرضُ أرضي.

حمدان : الأرضُ أرضي.

(يتجمد المشهد عليهما. يتقدم الراويان)

الراوي1 : ما رأيُكم في هذا الموقف أيها السادة؟ لمن الأرض؟

الراوي2 : قانونُ الإصلاح الزراعي أنصف فلاحَنا لأول مرة في تاريخ استعباده الطويل. كسر ظهر الإقطاع، وجرَّده من قوته. ألا يجب على حمدان الالتزامُ به، والسماحُ للآغا بأرضه التي أخذها من القانون؟

الراوي1 : لكن القانون قاصِرٌ من عدة وجوه. والذين كانوا أجراءَ قبل القانون، ظلوا أجراءَ بعد القانون.

الراوي2 : نال الفلاحُ كرامتَه بعد زمن طويل من امتهان الكرامة الإنسانية.

الراوي1 : لكن القرية ظلت فقيرة مهجورة. فيها آغا سابق أو ملاّك أو تاجر كبير. وصار في قرانا عشراتٌ من الأغوات الصغار الجدد، يمتصّون خيراتها.

الأجير1 : الأرض للآغا.

حمدان : (يرفع بلطته) اقتربوا منها إن استطعتم.

أبو العطا : ما هذا. ما هذا؟ قتال وشجار؟

الراوي2 : هذا تعدٍّ على القانون.

الراوي1 : هذا إصلاحٌ للقانون.

محمود : ابتعدوا عن بعضكم. أتريد أن تعرف لمن الأرض يا حمدان؟

حمدان : أعرف أن الأرض لي.

محمود : ألا تريد أن يعترف لك الآخرون بهذا الحق؟

حمدان : أريد.

محمود : أتريد أن تعرف لمن الأرض يا آغا؟

الآغا : صكُّ الملكية معي.

محمود : وإن لم يعترف الآخرون بقانون الملكية؟

الآغا : إلى أين تريد الوصول؟

محمود : سأجعلكم تعرفون لمن الحق في الأرض.

حمدان : كيف؟

محمود : سنحكي حكاية سليمان الحكيم مع الولد وأمه في دائرة الطباشير.

حمدان : حكايةٌ ظالمة. أعرفها وأرفضها.

الآغا : قبلتُها.

محمود : وحمدان سوف يقبلها.

حمدان : لا أقبلها.

محمود : الحكاية ليست لك وحدك. قبل أن تعرف حقك، يجب أن يعرف الجميع لماذا استوليتَ على الأرض وخالفت القانون. سنكلم هؤلاء الناس الموجودين هنا.

حمدان : هؤلاء الذين نسوا شكل الفلاح؟ الذين مازالوا يسخرون من الفلاح؟ الذين سمحوا للآغا برفع رأسه من جديد؟ هؤلاء الذين كانوا فلاحين، ثم صاروا شيئاً هجيناً غير الفلاح؟

محمود : نعم. هؤلاء هم الذين يحكمون لك أو لغيرك.

حمدان : إني أرفضهم.

محمود : يجب أن ترضى بهم وتثق بحكمهم. لعلي أنا أثق بنفسي. أقْنِعْهم بقضيتك وحقك.

حمدان : ألم تُقنعْهم القوانين؟

محمود : القانون يقرِّر. أما الإقناعُ والتنفيذُ فمن مهمة الإنسان.

حمدان : فإن وافقوا الآغا؟

محمود : أخذ الأرض.

الآغا : وإن وافقوا حمدان؟

محمود : اخذ الأرض.

الآغا : قبلت.

حمدان : قبلت.

محمود : لنبدأ حكايتنا.

(يقوم الممثلون بلبس ثيابهم التي تعود إلى
العهد العثماني دون تحديدٍ لزمانٍ معين)

الراوي1 : في زمنٍ من الأزمان.. في بلدٍ من البلدان..

الراوي2 : السلطانُ العثماني في الآستانة، عيَّن كاظم باشا والياً على سَنْجَقٍ من سناجق بلاد الشام. قد يكون حمص أو حلب أو دمشق، أو غيرَها من السناجق.

الراوي1 : بنى لنفسه قصراً عالياً. ملأه بكل ما يسر العين والقلب. جبى الأموالَ الطائلة. ضرب الرعيةَ بالسياط حتى امتلأت خزائنُه بالذهب.

الراوي2 : فاشترى من السلطان الولايةَ لنفسه وأولادِه من بعده. وطابت الأيامُ للوالي كاظم باشا.

الراوي1 : (معلناً) قصر كاظم باشا.

(يأخذ المسرح شكل قاعة من قاعات
القصر. كاظم باشا يتجول في القاعة.
معه الوزير، ووراءه الحارس تامر)

كاظم باشا : كيف تجرؤ أيها الوزير على تهديدي بالوالي الأكبر؟

الوزير : أنا نصيحُك يا باشا، ومبيّنٌ لك خطرَ ما تفعل.

كاظم باشا : أأنا غافلٌ عما أفعل؟

الوزير : لا أقصد هذا. أقصد أن الوالي الأكبر صاحبُ الفرمان العظيم بتولّي البلاد. تصوَّرْ يا باشا. أنت والٍ على هذا السنجق. وهو والٍ على كل السناجق.

كاظم باشا : وإن كان ذلك؟

الوزير : جيشُه أكبرُ من جيشك. ورعيتُه أكثر من رعيتك. وأموالُه أربى من أموالك. ولا انتصارَ بلا مال.

كاظم باشا : أتظن أني لم أحسب حساباً لهذا؟

الوزير : لا أظن يا باشا. لكن مراجعة الحسابات أولى وأحسن.

كاظم باشا : (ضاحكاً) مسكينٌ أنت يا وزير. سأهزم جيوشَ الوالي الأكبر في المعركة الأولى.

الوزير : هل يوافق السلطان على عملك؟

كاظم باشا : (ضاحكاً) السلطان... تُضحكني يا وزير. السلطان. بالمال نشتري السلطان. بالمال اشتريتُ الولايةَ لي ولأولادي من بعدي. وإذا رفعنا نسبةَ الخراج، أشتري...

(تدخل نَوْزات خانم مسرعة.
وراءها الطبيب والخادمة هند
وهي تحمل طفلاً)

نَوْزات : كاظم. اقطعْ رأسَ هذا الطبيب.

كاظم باشا : نقطع رأس الطبيب. لكن لماذا؟

نوزات : طوران الصغير سعل اليوم مرتين.

كاظم باشا : سعل مرتين؟ (إلى الوزير) لا تحملِقْ بزوجتي يا وزير. (إلى الطبيب) يا طبيب الكلاب. تترك وليَّ العهد يسعل مرتين؟

الطبيب : يا باشا. السعال...

نوزات : لا تجادلْه يا كاظم. اقطعْ رأسَه فوراً.

الطبيب : إذا كان السعال هكذا (يسعل بقوة) فهو دليلُ المرض. أما إذا سعل الطفل هكذا (يسعل بنعومة) فهو دليل الصحة والعافية.

كاظم باشا : كيف سعل الباشا الصغير اليوم؟

نوزات : سعل هكذا. (تسعل بقوة).

الطبيب : عفواً نوزات خانم. سعل هكذا. (يسعل بنعومة).

نوزات : كلا. كلا. سعل هكذا. (تسعل بقوة).

الطبيب : والله العظيم سعل هكذا. (يسعل بنعومة).

كاظم باشا : قَرِّبوا مني الباشا الصغير. هيه. لا تحملقْ يا وزير. (تقترب هند وتقدم إليه الطفل) جميلٌ طفلُنا يا نوزات. جميل. سيكون ملكاً عظيماً ذات يوم. اسعُلْ أيها الطفل الجميل لنرى كيف تسعل؟

الطبيب : (يسعل بنعومة عن الطفل).

كاظم باشا : سعالٌ جميل. سعال جميل. أيها الطبيب. هذا سعال ملكي. سعال استانبولي. (إلى الخادمة) خذيه.

(هند تحمل الطفل بحنان)

نوزات : تأنَّيْ على الطفل.

هند : الطفل بعيوني يا خانم.

نوزات : احمليه برفق يا قاسية القلب. هذا طفل صغير. رِجلُه أحسن من كل عائلتك. امش أمامي أيها الطبيب. إن سعل اليوم مرة ثالثة أمرتُ برميك إلى الكلاب.

كاظم باشا : (إلى الطبيب) قبلنا منك أن يسعل الطفلُ مرتين في اليوم فقط. في الثالثة تُشنَق من قدميك. في الرابعة، شنق حقيقي.

الطبيب : لن يسعل يا باشا. لن يسعل.

نوزات : لا تخنقي الطفل يا عديمة الشفقة.

(نوزات والخادمة والطبيب يخرجون)

كاظم باشا : نعود إلى حديثنا يا وزير.

الوزير : نعم يا باشا.

كاظم باشا : ماذا كنتُ أقول؟ نعم. نعم. بالمال نشتري السلطان. لا تنظُرْ إلى زوجتي كثيراً.

الوزير : نوزات خانم مثل أختي وأعز.

كاظم باشا : أعرفك يا وزير. تحب البصبصة إلى النساء. المهم. نرفع نسبةَ الخراج فنُسمِّنُ خزينةَ السلطان،. نُرسل إليه بعضاً من الجواري الحسان.. أنت تحب الجواري الحسان.

الوزير : أنا تلميذُكم يا باشا.

كاظم باشا : وعدداً من الخيول العربية الأصيلة. ندفع سعراً أعلى إلى الصدر الأعظم. فنضمن فرماناً بتنصيبنا الوالي الأكبر.

الوزير : كيف نسمِّنُ خزينةَ السلطان؟

كاظم باشا : نزيد الضرائب قليلاً. عشرين أو ثلاثين أو سبعين بالمائة. نُرسل جيشاً من التحصلدارية الذين لا يرحمون. والأهمُّ من ذلك، نمنح الأراضيَ والقرى لمن يتعهَّدُ بزيادة المدفوعات. انظر. هذه أسماءُ الذين سنعطيهم الأراضي والقرى.

الوزير : رأيٌ سديدٌ يا باشا.

كاظم باشا : اسْمُكَ أول اسم في القائمة.

(تدخل نوزات والطبيب والخادمة وراءها)

نوزات : لن أخرج من هنا إلا وهذا الطبيبُ على المشنقة.

الطبيب : لم يسعل الطفل يا باشا. والله العظيم لم يسعل.

نوزات : تُكذّبني يا طبيب الحمير؟ سمعتُ صوته بأذني.

الطبيب : لم يكن سعالاً. كان هذا... يعني خرج من بطنه هواءٌ فاسد. وهي مرة واحدة فقط.

نوزات : ابني طوران باشا، ابن كاظم باشا، يخرج من بطنه هواء فاسد؟

الطبيب : يخرج يا سيدتي. يخرج.

كاظم باشا : عينَك عن زوجتي يا وزير. سمحنا لك أن يخرج من بطنه هواءٌ فاسد مرة واحدة في اليوم. إن عملها مرتين شنقناك مرتين.

الطبيب : لن يعيدها. لن يعيدها.

نوزات : امش أمامي يا دجال. وأنت يا خادمة. لا تخنقي الطفل.

(يخرجون)

كاظم باشا : ماذا كنا نقول يا وزير؟

الوزير : كنتم تقولون...

كاظم باشا : أليست نوزات جميلة؟

الوزير : مثل أختي يا باشا.

كاظم باشا : كنا نقول...

الوزير : إن اسمي في أول القائمة.

كاظم باشا : نعم. نعم.

الوزير : ما هي الأرضُ التي تكرَّمتم علينا بها أيها الوالي الأكبر؟

كاظم باشا : أحسنُ أرض في الولاية. يمر فيها نهرٌ غزير وفلاحوها كثيرون.

الوزير : سأكون عند حسن ظنكم يا مولاي. سأعصر لكم الفلاحين عصراً. سأجنِّدُ أقوى التحصلدارية. تصور. سأملأ جيوبَك وجيوبَ السلطان بالمال الوفير.

كاظم باشا : أتعرف كيف تفعل هذا؟

(الوزير ينحني كثيراً)

الوزير : أنا تلميذكم يا والينا الأكبر. الكُرباجُ من طرف، وربطُ الفلاح بالأرض من طرف. على أن يظل جائعاً وجاهلاً.

كاظم باشا : أحسنتَ يا وزير. أحسنت.

الوزير : أنا خادمكم يا مولاي.

كاظم باشا : سأنام باكراً. غداً صباحاً أقود الجيشَ لتحقيق ولايتنا الكبرى. أنت تنوب عني في تصريف أمور الولاية. إذا سعل الطفل مرة ثالثة، أو أخرج الهواء الفاسد من بطنه مرة ثانية، أوكِّلُك بمعاقبة الطبيب. اشنقْه من عينه أولاً. ثم من قدميه. ولا تنظر إلى زوجتي كثيراً.

الوزير : كما تأمرون يا مولاي.

(يخرج كاظم باشا والوزير.
يظل الحارس تامر واقفاً.
تدخل هند تريد تنظيف المكان)

هند : الحارس تامر هنا؟

تامر : ماذا تفعل الخادمة هند هنا؟

هند : تنظف المكان. فلماذا لا يبتعد الحارس تامر؟

تامر : أتخاف هند إذا رأيتُ عينيها؟

هند : لماذا لا يستحي الحارس تامر؟

تامر : تامر سيحكي لهند حكاية.

هند : هند تريد تنظيف المكان.

تامر : هند تشتغل وتامر يحكي.

هند : يتكلم الحارس ولا يشغلني عن العمل.

تامر : كان يا ما كان، يا قديم الزمان. كان يوجد بنت حلوة اسمها هند. وكان يوجد شاب اسمه تامر. جميل مثل القمر. قوي مثل الحصان. تحبه كل البنات. وهو يحب هند فقط. في يوم من ذات الأيام، ذهبت هند إلى النهر لتملأ الجرة. وقف تامر قرب النهر. ورأى هند تمدُّ رجليها في الماء البارد.

هند : الحارس تامر يكذب. لم يكن عند النهر أحد.

تامر : كان تامر مختبئاً وراء الشجر.

هند : سرّاق النظر.

تامر : ولماذا لا يكون تامر سراق النظر؟ هند جميلة وتامر يحبها.

هند : ألا يكذب الحارس تامر؟

تامر : يحلف بعيون هند إنه لا يكذب.

هند : ولكن هند لا تحب النظر من وراء الشجر.

تامر : وتامر يحب أن يرى كلَّ هند.

هند : قل للحارس تامر أن يستحي.

تامر : قولي لهند إن تامر يريد ذلك بالحلال.

هند : متى هذا الحلال؟

تامر : قولي لهند: بعد أن يعود تامر من الحرب. غداً يذهب مع كاظم باشا ثم يعود. معه نيشان، وفي قلبه حب. ويطلب الحلال.

هند : قل له: هند سوف تنتظره.

تامر : وإن جُرِحَ تامر في الحرب؟

هند : فال الله ولا فالك.

تامر : (ضاحكاً) رأيت وجهك الجميل يا هند.

هند : آه منك يا تامر. خَوَّفتَني.

تامر : تخافين عليَّ يا هند؟

هند : أنا... أنا... والله لا أعرف ما أقول.

تامر : هل تقبل هند من تامر هدية؟

هند : تقبل.

تامر : مصحف بسلسال. من الذهب.

هند : الذهب غالٍ. لا أريد ذلك.

تامر : أنتِ أغلى هدية. هل أجدُ المصحفَ والسلسالَ على صدرك يوم أعود؟

هند : ستجد الهديةَ على حالها، والقلبَ على حاله.

(تامر يهجم عليها ليراها)

تامر : دعيني أنظرْ إليك مرة ثانية يا هند.

هند : هذا كثير يا تامر.

(تهرب وتخرج من المسرح. يخرج تامر)

(يدخل الراويان)

الراوي1 : في الصباح، ذهب كاظم باشا إلى الحرب حالماً بالولاية الكبرى.

الراوي2 : لكن الوالي الأكبر كان مستعداً لاستقباله.

الراوي1 : كان الوالي الأكبر قد نشر جواسيسَه حول كاظم باشا، فعرف نواياه.

الراوي2 : قوّى جيوشَه وملأ جيوبَه وجيوبَ السلطان بالمال.

الراوي1 : أَقْطَعَ رجالَه الأراضيَ والقرى، وامتصَّ الفلاحين حتى آخر رمق.

الراوي2 : مسكين كاظم باشا. الوالي الأكبر كان أبرعَ منه في تجهيل الفلاحين وتجويعِهم. وكرابيجُه كانت أثخنَ وأقوى.

الراوي1 : منذ الساعة الأولى للمعركة، قُطِعَ رأسُ كاظم باشا. وحمله الجندُ على رؤوس الرماح.

الراوي2 : وأصدر الوالي الأكبر فرماناً يقضي بسلْبِ قصرِ كاظم باشا وقتْلِ ذريته. وكاد حدُّ السيف يحزُّ رأس الباشا

الصغير طوران، الطفلِ الرضيع ذي الأشهر الثلاثة.

الراوي1 : فوجب على أمه أن تهرب به حتى لا يُقتَل.

(حركة في القصر)

(تدخل نوزات وهند وخادمان)

الخادمة : ماذا سنفعل يا سيدتي؟

نوزات : سنرحل. أحضري الصندوق الأبنوس. ضعي فيه الضروري. الضروري فقط.

(تذهب الخادمة لإحضار الصندوق)

نوزات : (إلى هند) تحرَّكي وأحضري ثوبي البروكار.

هند : والطفل؟

نوزات : ضعيه هنا وأحضري الثوب.

(هند تضع الطفل وتذهب)

الخادم : سأهيِّئُ العربة يا سيدتي.

نوزات : عجِّلْ. يا عيني عليك يا كاظم باشا. (تدخل الخادمة بالصندوق) هاتي الثوب الدامسكو.

(تدخل هند وتضع الثوب البروكار في

الصندوق. تسمع صوت بكاء الطفل)

هند : الطفل يبكي. أحملُه حتى يسكت؟

نوزات : يا عيني عليك يا طوران. احمليه. (تهم هند بحمله) اذهبي أولاً وأحضري حذائي الأبيض.

(تذهب هند. يدخل الخادم مسرعاً)

الخادم : الجنود يقتربون. إلى العربة بسرعة.

(تدخل الخادمة حاملة الثوب الدامسكو)

نوزات : أحضري ثوبي الحرير. (إلى الخادم) اصبر قليلاً حتى أحضر ثيابي.

الخادم : احملي الضروري.

نوزات : هل أحمل غير الضروري يا بهيم؟ يا عيني عليك يا كاظم باشا.

(تدخل الخادمة ومعها الثوب الحرير)

الخادمة : هرب جميعُ من في القصر.

نوزات : والطبيب؟

الخادمة : أول الهاربين.

نوزات : قتلوك يا كاظم باشا. أحضري الثوبَ الأخضر. قتلوك يا حبيبي.

(الطفل يبكي ويسعل. تدخل

هند حاملة الحذاء الأبيض)

هند : الطفل يبكي ويسعل.

نوزات : مسكين يا ابني. أحضري الثوب البرتقالي المقصَّب. صرتَ من غير أب. أحضري الثوب الدانتيل أيضاً.

(يدخل الخادم)

الخادم : أسرعي يا سيدتي. الجنود على أبواب القصر.

نوزات : أسرعي يا خادمة الكلاب. أين الثوب الأخضر؟

هند : ها هو.

نوزات : هاتي الثوبَ الأحمر والحذاءَ ذا الشرائط. والحذاء بالكعب العالي.

(الخادمتان تركضان وتحضران ما طلبت)

نوزات : يا عيني عليك يا كاظم باشا. يا أحسن باشا.

هند : طوران يبكي.

نوزات : يلعن طوران وأبو طوران. أحضري الثياب.

الخادم : اقتحموا القصر.

نوزات : احمل الصندوق بسرعة.

(الخادم يجر الصندوق وهي ترتب
ثيابها فيه. تنسى طفلها وتذهب)

الخادمة : نسيت طفلَها.

هند : مع أنه طفل جميل.

(هند تحمل الطفل)

الخادمة : اتركيه يا مجنونة. هذا الطفل وباء.

(هند تضع الطفل. تخرجان.
الطفل يبكي. هند تعود)

هند : إنه يبكي.

الخادمة : وإن كان يبكي؟

هند : لمن أتركُه؟

الخادمة : اتركيه للقرود. أمه قالت: يلعن أبوه.

هند : هل يقتله الجنود إذا وجدوه؟

الخادمة : ويقتلونك معه.

(تتركه وتذهب. الطفل يبكي. تعود هند)

هند : سآخذه.

الخادمة : أمه تركته.

هند : كيف أتركه وأنا أعتني به منذ ولادته؟

الخادمة : لستِ أمَّه يا مجنونة.

هند : أنا التي أطعمتُه وغسلته وناغيته. كان يمد يده إلى صدري ويضحك لي.

الخادمة : فعلتِ ذلك لأنك خادمة.

هند : صحيح. لكنه طفل وأنا امرأة.

الخادمة : اسمعي صوتَ الجنود. لن يروني مع هذا الطفل.

(هند تخرج وتتركه متنهدة. تعود وتحمله بسرعة)

هند : سآخذُه وليفعلوا ما يريدون.

(تخرج به مسرعة)

الراوي2 : لم تعلم هند أن هذا الطفل "وباء" كما قالت الخادمة.

الراوي1 : لأنه وريثُ كاظم باشا، وجب قتلُه حتى لا يطالبَ بميراث أبيه. ومن يدري؟ فقد يطالب بولاية أبيه.

الراوي2 : جنودُ الوالي الأكبر لاحقوه.

الراوي1 : انتشروا في المدن والقرى والبراري...

الراوي2 : يسألون عن الطفل ومعهم أمر قاطع:

الراوي1 : اقتلوه حيث وجدتموه. واقتلوا كلَّ من يحميه أو يدافع عنه.

الراوي2 : هند كانت تهرب به من مكان إلى مكان.

الراوي1 : في الحر. في البرد. في السهل. في الجبل. حَفِيَتْ قدماها من الركض.

الراوي2 : أنفقت أكثرَ ما معها من مال.

الراوي1 : فكيف تأكل وتطعم طفلها؟

الراوي2 : سنرى ما حدث لها.

الراوي1 : نحن الآن في قرية من القرى.

(هند تطرق باب امرأة عجوز.

العجوز تفتح الباب على حذر)

العجوز : نعم؟

هند : أريد كأساً من الحليب لهذا الطفل.

العجوز : يا عيني. ألا يشرب ابنُك إلا الحليب؟

هند : ماذا يشرب الأطفال؟

العجوز : أَرضِعيه من ثديك. أم تخافين على جمال صدرك يا ست الحسن؟

هند : جفَّ حليبي.

العجوز : ثمن كأس الحليب أربعة مجيديات.

هند : أربعة مجيديات؟ كنا نشتري كيلو الحليب بربع مجيدي.

العجوز : كيلو الحليب بربع مجيدي يا بنت الأكابر؟ الدنيا حرب.

هند : الحليب حليب. في السلم والحرب لا يتغير الحليب.

العجوز : سعرُ الحليب يتغير. العسكر يأخذون الأغنام والأبقار. الرجال ليسوا في البيوت. فلا أحد يفلح ولا أحد يزرع. البضائع تختفي. وتريدين كيلو الحليب بربع مجيدي؟ ليس عندي حليب.

هند : سأدفع.

(تحضر لها العجوز كأس الحليب)

العجوز : خذي. سم الموت.

(هند تسقي الحليب للطفل.

(العجوز تدخل بيتها)

هند : (وحدها) أتعبتني يا طوران. أتمنى لو أضعك في مكان أمين. لو بقي معي مالٌ لأطعمَكَ، أبقيتُك معي. لو كنتَ ابني، لضحَّيْتُ في سبيلك. بسببك أهرب من الجنود كالأغنام الخائفة. أنام في البراري حتى لا يجدوك. هل تطلب مني أكثر من هذا يا طوران؟ اعذرْني إذا تركتك هنا. لعل هذه العجوز الطيبة تحنُّ عليك، أو يمرُّ رجلٌ في قلبه رحمةٌ فيأخذك ويرعاك. (تتركه وتمضي قليلاً. تتوقف) وإن لم يُشفِقْ عليك أحد؟ يا ويلي. تموت في مكانك. (تحمله) سأرى هذه العجوز.

(تطرق باب العجوز)

العجوز : نعم. كأس الحليب بخمسة مجيديات هذه المرة.

هند : هل تضعين هذا الطفل عندك وأعطيك عشرة مجيديات؟

العجوز : أضعُ الطفلَ عندي؟

هند : أولَ ما يعود الرجال من الحرب آتي وآخذه.

العجوز : ألستِ أمَّه؟

هند : الحقيقة... لا.

العجوز : لستِ أمه أم لا تعرفين أباه؟

هند : لا والله يا خالة. ليس ابني.

العجوز : وتدفعين أربعة مجيديات لتسقيه كأساً من الحليب؟

هند : إنه ابن ناس أكابر.

العجوز : ابن ناس أكابر يا بنتَ الأصاغر؟

هند : نعم. والله نعم.

العجوز : (ترفع عليها العصا) أنا ملجأ أيتام؟ انقلعي من هنا. عشرة مجيديات؟ مئة مجيدي لا تجعلني أحوي ابن الزنا هذا.

(تغلق الباب في وجهها. تتلفت
هند حولها فترى الجنود من بعيد)

هند : الجنود. سيقتله الجنود.

(تمد يدها إلى جيبها. وتخرج كل ما معها
من مال مع المصحف والسلسال. تطرق
الباب من جديد)

العجوز : ذوقي يا بنت الحرام.

هند : جاء الجنود. خذي كلَّ ما معي من المال والمصحفَ والسلسال. من الذهب. والله من الذهب. قولي إنه ابنك. بعد الحرب آتي وآخذه وأعطيك مالاً كثيراً.

(هند ترمي إليها المال والمصحف والسلسال.
وتضع الطفل أمامها وتهرب. تختفي في مكان
قريب لتراقب ما يجري. العجوز تأخذ المال
والطفل. تغلق الباب)

(يأتي الجنود الثلاثة. الجاويش والجنديان)

الجاويش : استريحوا قليلاً. يلعن طوران وأبو طوران.

جندي1 : إذا لم نجد طوران، قطع الوالي الأكبر رؤوسَنا.

جندي2 : ماذا لو أخذنا له أيَّ طفل؟

الجاويش : إذا اكتشف الوالي الأكبر أنه ليس طوران النحس، جعل راتبَك قطعَ رأس، أرجحةً على المشنقة، رميةً إلى الكلاب. وعندها لن تسكر ولن تركض وراء النساء.

جندي2 : لا تذكِّرْنا بالنساء يا جاويش. من زمن طويل لم أدغدغ واحدة.

جندي1 : أنا لا أقبل إلا صبية.

جندي2 : أنسيتَ يوم هفَّتْ نفسُك على تلك العجوز أم التسعين سنة؟

جندي1 : أنا؟ فشرت. أنت قلتَ لها: يا عيني ضُميني.

الجاويش : فكِّرا بالطفل اللعين وقطْعِ الرأس.

جندي2 : صحيح.

جندي1 : تعال نسأل سكان هذا البيت.

(الجاويش يقرع باب العجوز)

جندي1 : إن كانت صاحبةُ البيت عجوزاً فهي لك. وإن كانت صبية فهي لي.

الجاويش : إن كانت عجوزاً فهي لكما. وإن كانت صبية... يا سلام. إياكما أن تنطقا بحرف. تبتعدان وتراقبان.

(تخرج العجوز)

العجوز : نعم. (ترى الجنود) أهلاً وسهلاً.

الجاويش : هل يوجد عندك أطفالٌ صغار؟

العجوز : عندي واحد.

الجاويش : أهو ابنك أم ابن ابن ابنك؟

العجوز : لست عجوزاً إلى هذا الحد.

الجاويش : (إلى الجنديين) هه. ترى نفسها صبية. يعني... (يضحك ثم يتخذ مظهر الجد) ابن من هو إذن؟

العجوز : لماذا تسأل؟

الجاويش : ربما كان طوران باشا بن كاظم باشا.

العجوز : هي التي تركته عندي.

الجاويش : من هي؟

العجوز : لا أعرفها. أعطتني هذا المال وهذا السلسال مع هذا المصحف. خذها يا جاويش.

(الجاويش يأخذ المال والمصحف والسلسال)

الجاويش : أرني هذا الطفل.

العجوز : هذا هو يا جاويش.

(تعطيه الطفل وتغلق عليها الباب بخوف)

الجاويش : كأنه طوران.

جندي1 : ثيابه فخمة.

جندي2 : جبينُه مرتفعٌ كما قالوا.

جندي1 : على خده شامةٌ كالتي وصفوها.

الجاويش : إذن نأخذه إلى الوالي الأكبر.

جندي2 : إذا لم يكن طوران النحس فهو شبيهٌ به. ولا أحد يعرف.

الجاويش : (يتخذ صفة الجد) أنا الجاويش أعلن: نفذنا مهمتنا.

الجنديان : (يهتفان فرحين)

الجاويش : سيُكرِمنا الوالي الأكبر يا شباب كما وعد.

الجندي2 : ذهب. المكافأة ذهب.

الجندي1 : سنسكر. نسكر. نسكر. وننتقي من النساء ما نريد.

الجاويش : كيف يقتل الوالي الأكبر هذا الطفل؟

جندي2 : يقتله كما يشاء.

الجاويش : هل يعذِّبه قبل القتل كما يفعل مع الرجال؟

جندي1 : طفل لا يفهم بالتعذيب.

الجاويش : (يضحك) أتخيل الجلادَ المسكين إذا أمره الوالي الأكبر أن يقطع رأس هذا الطفل. سيغضب ويقول: قطعُ رؤوس الأطفال ليس من مقامي.

جندي2 : ليفعل به ما يريد. المهم نحن.

الجاويش : لنذهب. كتيبة. أمام سر.

(يتجهون نحو الذهاب. هند تقترب
منهم. تتنحنح. يلتفتون نحوها)

جندي1 : هيه. هذه فتاة.

جندي2 : وجميلة.

(يهندمون ثيابهم. يقتربون منها)

الجاويش : ماذا تفعلين هنا؟

هند : أمشي.

الجاويش : وحدك في هذا الجو العكر؟

هند : نعم. وحدي.

الجاويش : ألا تخافين؟

هند : الجنديُّ الجميلُ مثلك لا يُخيفني.

الجاويش : أنا جاويش.

هند : جاويش؟ يا سلام.

الجاويش : سأصبح يوزباشي بعد مدة.

هند : يوزباشي مرة واحدة؟ يا سلام.

الجاويش : ومن يدري؟ قد أصبح كومندان بعد مدة.

هند : كومندان؟ يا سلام.

الجاويش : ومن يدري؟ قد أصبح والياً بعد مدة.

هند : تصير والياً؟ ياه.

الجاويش : ومن يدري؟ ومن يدري؟

هند : ستكون عندئذ عجوزاً. أنا لا أحب العجائز.

الجاويش : أنا الآن جاويش.

هند : من أين لك هذا الطفل؟

الجاويش : هذا طفل. لا تخافي منه. خذه عني. (يعطيه إلى الجندي2)

جندي2 : أنا مشغول. خذه عني. (يعطيه إلى الجندي1)

جندي1 : أنا مشغول أكثر منك. (يعطيه إلى الجندي2)

جندي2 : خذه يا قرد.

جندي1 : خذه يا كلب.

هند : ضعوا الطفل على الأرض.

جندي2 : فكرة. والله إنك ذكية.

(يضع الطفل على الأرض)

الجاويش : ابتعدوا من هنا. (يبتعدان ثم يعودان) الجاويش يقول: ابتعدوا من هنا.

جندي1 : بلا جاويش بلا خلط. في هذا المجال لا يوجد رُتَب.

الجاويش : ترفعُ صوتَك يا عسكري؟ ابتعد.

(الجنديان يبتعدان. الجاويش يقترب
من هند. هند تحايله وتقف وراءه.
تضربه على رأسه فيسقط. تحمل
الطفل وتهرب)

الجاويش : (ينهض) ماذا جرى؟ أين ذهبت العفريتة؟ أخذت الطفل. يا جنود. يا جنود. سرقت الطفل. من أين ذهبت؟

جندي2 : لو أجَّلت هروبها قليلاً.

الجاويش : فكِّرْ بالمشنقة يا لئيم.

جندي1 : ذهبت من هنا.

الجاويش : سأقطع رأسَ هذه اللصة. كتيبة. اصطفاف. أمام سر.

(يخرجون. تعود هند)

هند : كادوا أن يقتلوك يا طوران. ماذا أفعل بك؟ أين أرميك؟ لم يبق معي مال. المصحف راح والسلسال راح. نجونا هذه المرة يا طوران. هل ننجو في المرة الثانية؟ من أين أطعمك يا طوران؟ لو كنتَ كبيراً لأكلتَ غير الحليب. لو كان لي أهل لذهبنا إليهم. لكن... يا طوران. بعد كل ما فعلتُه من أجلك.. هل أتنازل عنك؟ إني أحبك كأنك ابني وأكثر. سأجعلك ابني يا طوران. حتى لا يعرفك أحد، سأخلع عنك ثيابَك الفاخرة. سألبسك خرقةً يا بني. لكنها نظيفة. والله العظيم نظيفة. سأسميك "حسن". أبو علي حسن. ابني حسن. وماذا أفعل بهذه الشامة على خدك؟ لو كان بيدي لمسحتها. لكنها شامة جميلة يا حسن.

(العجوز تفتح الباب حاملة كأساً من الحليب)

العجوز : خذي.

هند : ما هذا؟

العجوز : حليب.

هند : ليس معي أربعة مجيديات.

العجوز : لا يهم.

هند : يعني.. آخذُ الحليب وأسقيه لحسن؟

العجوز : نعم.

(هند تسقيه الحليب بتردد. العجوز تناغيه)

العجوز : اسمه حسن؟

هند : نعم.

العجوز : اللهم صلِّ على النبي. اسم جميل.

هند : شكراً يا خالة.

العجوز : أين تذهبين بهذا الطفل؟

هند : لا أدري.

العجوز : أهو ابنك؟

هند : نعم. ابني.

العجوز : كنت تقولين إنه ابن ناس أكابر.

هند : كنت أكذب. إنه ابني.

العجوز : لماذا لاحقه الجنود؟

هند : ظنوه ابنَ امرأة أخرى.

العجوز : قد يلاحقونه من جديد.

هند : نعم.

العجوز : ضربتِ من أجله الجاويش؟ مسكينة. لا تعرفين نتائج ضرب الجاويش. أمر خطير.

هند : كثيراً؟

العجوز : إذا وجدوكِ مرة ثانية... يا لطيف.

هند : آه.

العجوز : تسكنين عندي؟

هند : ليس معي مال.

العجوز : لا يهم.

هند : كيف أسكن عندك؟

العجوز : تتزوجين ولدي. شاب مثل القمر.

هند : لا يمكن. لا يمكن.

العجوز : هل أنت متزوجة؟

هند : لا.

العجوز : إذن، تسكنين عندي. زوج وبيت ولقمة طيبة وحليب للطفل وحماية من الجنود. إذا وجدوك مرة ثانية قتلوكِ وقتلوا الطفل.

هند : كيف أتزوج وأترك...؟

العجوز : تتركين ماذا؟

هند : آه يا ربي.

العجوز : لا تترددي يا... ما هو اسمك؟

هند : هند.

العجوز : لا تترددي يا هند.

هند : كيف تزوجين ولدَك فتاةً لا تعرفينها، ومعها طفل؟

العجوز : لله يا ابنتي. لله. ولدي مسكين مثلك. شاب جميل. سأناديه لك.(تنادي) تعال يا مفعوص.

هند : اسمه مفعوص؟

العجوز : اسمه على ما أظن سليم. مفعوص اسم الدلال. وهو بسيط قليلاً. أقصد أنه... تعال يا مفعوص. دبَّرتُ لك عروساً جميلة. إنه ضعيف العقل قليلاً. أقصد أنه... يعني درويش على باب الله. يعني... إنه أبله قليلاً. سوف يحبك. ومن يدري؟ قد تنجبين لنا ولداً يرث أموالنا وأرضنا. نحن أغنياء يا... ذكِّريني باسمك.

هند : هند.

العجوز : نحن أغنياء جداً يا هند. من أربعين سنة وأنا أجمع المال وأشتري الأراضي. مرت عليَّ حروبٌ كثيرة ومشاكل كثيرة وأنا صامدة مثل السنديانة. الحرب تنفع يا ابنتي. تنفع. خاصة لمن معه مال. المجيدي يربح مائة مجيدي. سوف تنتفعين معي. ليس لي إلا هذا الولد. تعال يا مفعوص. قلت: أزوجه وأفرح به. لم يأت لأن سمعه ضعيف. سأُحْضِرُه إلى هنا.

(العجوز تدخل البيت)

هند : ماذا أفعل يا حسن؟ هل أتزوجه يا بني؟ إذا تزوجتُه حرمتُ نفسي من تامر. آه يا تامر. لماذا لا تعود وتحميني؟ لكن... إذا لم أتزوج، فكيف أحميك يا بني؟ كم قالوا إنك ولد زنى. واتهموني بأنك ابني بالزنى. أتقبل لأمك هذه التهمةَ يا بني؟ كلما سمعتُها تقطع قلبي. إذا تزوجتُ الأبله، قطعتُ الألسنة وحميتُك وحميتُ نفسي. وتامر؟ آه يا بني. ماذا أفعل؟

(تعود العجوز مع ولدها الأبله.

وهو أصم وأبكم أيضاً)

العجوز : (إلى ولدها) هذه هي العروس. (إلى هند) شاب مثل القمر. ماذا تقولين فيه؟ (إلى ولدها) قبلتِ الزواجَ منك. تكلم يا مفعوص.

هند : أنا... أنا لا أريد الزواج.

العجوز : تعالي يا... يخزيني الشيطان. نسيت اسمك.

هند : هند.

العجوز : تعالي يا هند وتوكلي على الله. (إلى ولدها) ادخلْ أمامي يا حيوان. عروس مثل القمر أمامك ولا تهش ولا تبش؟ تعالي يا ابنتي. تعالي.

(تجرها من يدها وتدخل بها إلى دارها)

الراوي2 : وأغلقتْ هند قلبَها وحرمت نفسَها من تامر.

الراوي1 : من أجل طوران...

الراوي2 : (مقاطعاً الراوي1 ومصححاً له) حسن. حسن.

الراوي1 : عفواً. من أجل حسن دخلتْ هند بابَ الشقاء.

الراوي2 : لكن هذا لم يكن آخر عذاباتها.

(تخرج هند من الكوخ غاضبة والطفل

على يدها. تخرج العجوز وراءها)

العجوز : أترفضين يا بنت الشوارع؟

هند : أرفض. أرفض.

العجوز : لَمَمتُكِ من الأزقة. وأطعمتُك. وأطعمتُ ولدَ الزنى هذا. وترفضين ردَّ الجميل يا ناكرة الجميل يا قطة يا جربانة؟

هند : اشتغلتُ في أرضك. غسلت لك الثياب. خدمتك أحسن من عشر خدامات ولم أعترض على شيء. أما أن تتاجري بي فلا أقبل.

العجوز : كأني أطلب منك المستحيل. تعاشرين الجنود وتضحكين عليهم وتأخذين مالهم. نصفُه لك ونصفُه لي. أيامُ الحروب فائدةٌ للنساء. آه لو كنتُ في شبابي.

هند : لن أقبل.

العجوز : الجنود في الداخل بانتظارك يا قليلة العقل.

هند : خافي الله يا امرأة. أنا زوجة ابنك.

العجوز : هذا زوج؟ أبله ومجنون وأطرش.

هند : إنه ابنك على أي حال. وأنا زوجته.

العجوز : وإن كان ابني؟ ما فيه نفع لا للخل ولا للخردل. لو كان فيه نفعٌ للنساء كان نفعني في أيام الحروب هذه، وملأ بيتي بأكياس الذهب.

هند : لا تجادليني. لن أقبل.

العجوز : والله وبالله وتالله، إذا لم تقبلي، أخبرتُ الجنود عن الولد.

هند : لو قتلوني فلن أقبل.

العجوز : طيب. سأناديهم وأخبرهم. وسوف نرى.

(العجوز تدخل البيت)

هند : ماذا أفعل يا حسن؟ تعال نهرب.

(هند تهرب)

(العجوز ترجع)

العجوز : أين أنتِ يا أم ولد الزنى؟ هربت الملعونة. طيب. أنا وراءك والزمن طويل. سأعيدك إلى البيت غصباً عنك. تهربين وتتركين الجنود لي حتى يهربوا من غير دفع؟ سأحضِرُ فتاةً غيرك وأجعل الجنود يشدونك من شعرك إلى هنا. سأجبرك على ما أريد. بثمن أكلك اشتغلي على الأقل.يا جنود. الحقوها. تفو على كناين آخر زمان.

الراوي1 : في الفصل الثاني..

الراوي2 : نكمل الحكاية.

الفصل الثاني

(يدخل الممثلون. ويجلسون في تجمُّعٍ
واحد أو أكثر وهم ينشدون أغنية
شعبية. يتقدم الراويان)

الراوي2 : بعد أن هربت هند من حماتها العجوز، عادت إلى التشرد في البراري والقرى.

الراوي1 : اشتغلتْ خادمةً عند بعض السادة. شحذت الطعام من كل مكان. وتلقَّت كلَّ الإهانات لتطعم طفلَها.

الراوي2 : وبينما كانت تجوع وتحاول لطفلها أن لا يجوع...

الراوي1 : كان وزير كاظم باشا يُدبِّرُ لنفسه أمراً جديداً مستغلاً الظروفَ والأوضاع.

الراوي2 : ففي مجتمع الأغنياء والفقراء، يصبح استغلالُ الفرص أمراً شائعاً.

الراوي1 : تصبح اللصوصية أمراً سائداً.

الراوي2 : النهبُ يصبح أمراً شائعاً.

الراوي1 : هدرُ كرامةِ الأضعف يصبح أمراً سائداً.

الراوي2 : شراءُ المناصب بالمال يصبح أمراً شائعاً.

الراوي1 : بين الأمور الشائعة والأمور السائدة، غمس وزير كاظم باشا إصبعَه حاملاً ذكاءَ اللصوص ودهاءَ نهّازي الفرص.

الراوي2 : نحن الآن مرة ثانية في قصر كاظم باشا.

(يظهر الوزير ومعاونه حكمت)

الوزير : آن الأوان يا حكمت.

حكمت : الوالي الأكبر مخيف يا سيدي.

الوزير : جيوشُ الوالي الأكبر ضَعُفَتْ في محاربة كاظم باشا.

حكمت : أخشى أن نكون أضعفَ منه.

الوزير : اطمئن. نحن أقوى منه. جمعتُ فلولَ جيش كاظم باشا. والمرتزقةُ يأتون إليَّ كالجراد. تصور. أهيّئ لهم الجواري قبل الطعام والرواتب.

حكمت : والسلطان؟

الوزير : اشتريتُه واشتريت حاشيتَه. تصور. واشتريتُ فرمان كاظم باشا بتوريث أبنائه الولايةَ من بعده. اتصلتُ بنوزات خانم لكي أتزوجها وأتبنى طوران باشا.

حكمت : ووافقت؟

الوزير : طبعاً. ستصير زوجةَ الوالي الأكبر. نوزات خانم جميلة. تصور. كنت أشتهيها من أيام زوجها.

حكمت : هل وجدتم الطفل؟

الوزير : جنودي يبحثون عنه.

حكمت : بقي أن نهزم جيوش الوالي الأكبر.

الوزير : هذا أهون شيء. المهم إرضاءُ الباب العالي بالذهب. نحن نحتاج إلى الذهب.

حكمت : زدنا الضرائبَ كما أمرتم يا سيدي.

الوزير : قل لي يا حكمت. هل تعطيني كلَّ ما تجبيه، أم تأخذ منه؟

حكمت : أنا يا سيدي...

الوزير : أنا أعتمد عليك لأنك تأخذ. من لا يسرقُ يكون أميناً. والأمينُ على أمثالنا خطير.

حكمت : أكنتَ تفعل ذلك مع كاظم باشا؟

الوزير : كان يفرض ضريبةً فأزيدها عشرين بالمائة. كم تزيدها أنت؟

حكمت : عشرةً بالمائة فقط.

الوزير : ارْفعْها إلى العشرين. ونصفُ الزيادة لي.

حكمت : كما تأمر.

الوزير : وإلى أن نهجم على الوالي الأكبر، يجب أن تكون حذراً وصامتاً. تصور. إذا تفوهتَ بحرف واحد قطعتُ رأسك. لا تنس أني أعرف عنك كل شيء. حتى أين تضعُ أموالَك.

(يخرجان. يتقدم الراويان)

الراوي1 : وهجم الوزير على الوالي الأكبر وهزمه.

الراوي2 : حينما أدرك الوالي الأكبر أنه مهزوم، فرَّ بجلده وترك معاونيه يجمعون الجيوشَ ويستعدون لإعادة ولايته إليه.

الراوي1 : والسلطان؟ ماذا كان يفعل وهو يرى بلاد السلطنة تمزّقها جيوش المتقاتلين؟

الراوي2 : كان يقبض المالَ من الطرفين.

الراوي1 : وبينما كان الوالي الأكبر يهرب من مكان إلى مكان ليحميَ نفسه، كان الناسُ حائرين لا يعرفون كيف يدبرون لقمة العيش.

الراوي2 : من هؤلاء الناس، آدم... أفقرُ فلاح في تلك الناحية.

(يظهر آدم في كوخه الحقير)

(يمر به سلوم خائفاً)

سلوم : (ينادي) آدم. آدم.

آدم : ادخل يا سلوم.

سلوم : الجنودُ في القرية يفتشون عن شخص هارب. أنا خائف.

آدم : على أي شيء تخاف؟ على مالك أم على جمالك؟ خذ هذه التفاحة، وكلها.

سلوم : أين التفاح؟

آدم : ألا تشتهي التفاح؟

سلوم : نعم.

آدم : تخيَّلْ أنك تأكل التفاحَ فتشبع. هذه تفاحةٌ ثانية أطيبُ من الأولى. إذا لم تشبع، أعطيتك تفاحة ثالثة. تخيَّلْ.

سلوم : لا أعرف التخيل.

آدم : محروم ولا تعرف التخيل؟ عجيب.

سلوم : أنت تضحك على عقلي.

آدم : تخيل أنك تأكل دجاجتين مشويتين مع رغيف حنطة. اشْوِ الدجاجَ كما تريد. اخبز الرغيف على هواك.

سلوم : هذا كلامٌ يُجَوِّع.

آدم : تخيل أنك صرتَ الوالي الأكبر. فماذا تفعل؟

سلوم : لا أعرف.

آدم : تقطع عدةَ رؤوس.

سلوم : قطعُ الرؤوس لا يُشبِع.

آدم : طيب. تخيل أنك صرتَ القاضي الأول.

سلوم : ماذا تفعل؟

آدم : تشنق عدةَ رقاب. على كيفك. خذ هذه تفاحة طيبة. فيها عِرْقُ حموضة. تعال نغني.

سلوم : الجنود في القرية، وتغني؟

آدم : نتسلى.

(آدم يغني. يجاريه سلوم خائفاً.

فجأة، يدخل رجل ملثم خائف)

الرجل : أنا في عِرضك.

سلوم : سيأتي الجنود. (يهرب)

الرجل : أنا في عرضك.

آدم : خير. أنت ملاحق؟

الرجل : اخْفِني ولا تسألني شيئاً.

آدم : قد تكون لصاً أو مجرماً. أُدخلُك إلى قصري ولا أسألك شيئاً؟

الرجل : أرجوك.

آدم : ألا تكفيني مشاكلي؟ ادخل. حينما ذهبتُ إلى قرية الغزالة، جاءت حمارةُ أم منهل. تحسَّستْ بي ولا أعرف لماذا؟ اجلس. اذهبي عني يا حمارة. لا ترد. اكفيني شرَّكِ يا حمارة. لا ترد. سيجعلونكِ أحسنَ

حصان في العالم يا حمارة. لا ترد. خذ هذه التفاحة. جاءت صاحبتُها أم منهل وبدأ الصراخ. حمارتي يا ابن الحرام. تسرقُها يا ابن الكلب؟ إذا كان لكَ صاحبٌ مثلُ أم منهل، يحسبُك عليَّ أحسنَ من الوالي الأكبر. هه. يبدو عليك الخوف. اطمئن. هنا لا يأتي أحد. يعرفون أنه قصر آدم بك الذي تراه أمامك. كل الناس يخافون مني إلا حمارةَ أم منهل. لا تخفْ يا رجل. أنت في قصري. اسمع. هل أنت جائع؟

الرجل : نعم.

آدم : (يعطيه كسرة خبز) هذا الرغيف كنتُ أخفيه لأيام الشدة. كُلْه وتخيل أنك تأكل على مائدة الوالي الأكبر. أكيد أنك لم تأكل من سنة. يا حيف. لم يبق عندي خبز. غداً صباحاً أدبر لك طعاماً. هل تعرف الغناء؟ (الرجل يهز رأسه نفياً) لا خير فيك. لا كلام ولا سلام ولا غناء. وتشعر بالنعاس أيضاً؟ اذهب إلى النوم. كأنك ضبع نعسان من شهر. (يأخذه إلى جانب في الكوخ) وترتجف من البرد أيضاً؟ (يغطيه بمعطفه) عطَّلتَ عليَّ سهرتي وأكلتَ طعامي. لكن ماذا أفعل؟ فقيرٌ متشردٌ يحتمي بي. على الأقل لستَ حمارة أم منهل. هل معك مال؟ هه. لا يبدو عليك الغنى. (يضع في جيبه بضع مجيديات) ماذا أفعل بحظي؟ لا أبتلي إلا بالفقراء.

(ينام في الطرف الثاني من الكوخ. يخفت
الضوء. بعد لحظة يستيقظ الرجل ويتسلل
هارباً. بعد لحظة يزداد الضوء إشارةً إلى
طلوع النهار. يأتي سلوم مهرولاً)

سلوم : آدم. آدم. أتسمعُ هذه الأصوات؟

آدم : اسْمعْ. النهار اليوم جميل يا سلوم. هل تذهب معي نتسلى عند الجبل؟ نغني ونأكل التفاح.

سلوم : قد تكون أصواتَ جنود.

آدم : أيُّ جنود؟

سلوم : جنودُ الوالي الأكبر أو جنودُ الوزير.

آدم : ربما.

سلوم : يا ويلي. يأتي هؤلاء فينهبون القرية. ويأتي هؤلاء فينهبون القرية.

آدم : ماذا يهمك أنت؟ أفقر من دَبُّور.

سلوم : تموت من الضرب ليعرفوا ماذا تملك. وتموت من الضرب لأنك لا تملك.

آدم : تعال نذهب إلى الجبل ونغني. سأشوي لك دجاجاً.

سلوم : جاؤوا. جاؤوا.

(يدخل جماعة من الفلاحين يهتفون باسم آدم.
سلوم يقف على باب الكوخ خائفاً. بالوظ

يمشي خلفهم منكسراً وهو يجر كرسي القضاء)

آدم : ليس عندي شيء. وسلوم ليس عنده شيء.

فلاح1 : مبروك يا آدم. أنت الآن القاضي الأول.

آدم : نعم؟

فلاح2 : انتخبناك قاضياً أول.

آدم : ماذا فعلتم بالقاضي السابق؟

فلاح1 : شنقناه.

آدم : لماذا؟

فلاح2 : لا يحكم بالعدل ويظلم الفلاحين.

فلاح1 : اجتمعْنا وقرَّرْنا أنه لا يصلح قاضياً لنا. وشنقناه.

آدم : ألم تخافوا من الجنود؟

فلاح2 : الجنودُ مشغولون ببعضهم. فوضى. والدنيا فلتانة بين الوالي الأكبر والوزير الأصغر. قلنا: هذه فرصةٌ لنحكم نحن. مرةً في هذا العمر. مرة. فانتخبناك.

آدم : وإن استقرَّت الأمورُ وعاد الوالي الأكبر؟

فلاح2 : يعزلك مع الضرب بالكرباج.

آدم : بسيطة.

فلاح2 : أو الشنقُ مرة واحدة فقط.

آدم : بسيطة.

فلاح1 : تعال يا بالوظ.

آدم : ما بالوظ هذا؟

فلاح1 : معاون القاضي. (إلى بالوظ) سَلِّمْ على سيدك الجديد.

(يذهبون)

آدم : (إلى سلوم) رأيتَ فائدة التخيل؟ صرتُ القاضي الأول.

سلوم : تخيل وحدك. أنا أخاف من الجنود. (يهرب)

آدم : تعال يا بالوظ.

(بالوظ ينحني انحناءة كبيرة)

بالوظ : أهنئكم يا سيدي.

آدم : انْحَنِ أكثر حتى أرى. عظيم. تعرف الانحناءَ جيداً.

بالوظ : أنا خادمكم يا سيدي.

آدم : ستصير شخصيةً هامةً يا بالوظ.

بالوظ : بعضُ ما عندكم يا سيدي.

آدم : تعال نبدأ الشغل.

بالوظ : نبدأ. لكن... هل تعرف أدواتِ الشغل يا سيدي؟

آدم : اشرحها لي.

(يأتي بالوظ بكرسي القضاء والمشنقة)

بالوظ : هذه هي المشنقة.

آدم : المشنقة من عِدَّةِ الشغل؟

بالوظ : أهمُّ شيء في الشغل. من تحكمْ عليه بالشنق، ننفذْ فيه الحكم فوراً حتى يأخذ العدل مجراه.

آدم : والكرباج؟

بالوظ : الكرباج لا شيء. نزهة. مداعبة.

آدم : والخازوق؟

بالوظ : الخازوق عقوبةٌ ممتعة. العدلُ الحقيقي هو الشنق. الشنقُ سيدُ الأحكام.

آدم : عال.

بالوظ : وهذا هو كتاب القانون.

آدم : هل تعرف محتوى هذا الكتاب؟

بالوظ : لا أعرف.

آدم : ولا أنا. والقاضي السابق؟ هل كان يعرف ما فيه؟

بالوظ : (يضحك) القاضي السابق لم يكن يعرف القراءة والكتابة. لكن هذا ليس مهماً يا سيدي. القانونُ لا يحتاج إلى معرفة. القانون يحتاج إلى تدبير.

آدم : هل يُدبّرون القانون؟

بالوظ : القانون في يدك مثلُ الخاتم. طريٌّ مثلَ العجين. تعجنه وتخبزه كما تقتضي المصلحة. تمطُّه كما تشاء.

آدم : القانون يمطّ؟

بالوظ : يمطُّ ويحطُّ ويتشقلب ويلعب على الحبال. القانون لا قيمة له يا سيدي. القيمةُ لأصول الشغل.

آدم : للقضاءِ أصولُ شغل؟

بالوظ : أصولُ الشغل هي القانونُ الحقيقي يا سيدي. مثلاً. يأتيك رجلٌ محترمٌ فاضلٌ مهيوب، رزقه الله مالاً وفيراً وأراضيَ كثيرة. وقد اعتدى عليه واحدٌ حقيرٌ فقيرٌ زنديقٌ لا يفرِّق بين المجيدي وطبق النحاس.

آدم : إي.

بالوظ : العدلُ واضحٌ في هذه الحالة والقانونُ صريح. القانون يحكم للمظلوم.

آدم : من هو المظلوم؟

بالوظ : الرجلُ المهيوب المحترم المرزوق. لأنه فاضل صادق أمين لا يعتدي على أحد.

آدم : والظالم هو الحقير الزنديق الفقير الذي لا يفرّق بين المجيدي وطبق النحاس.

بالوظ : تمام يا سيدي. أتقنتَ أصولَ الشغل.

آدم : معنى هذا، كتابُ القانون حبرٌ على ورق.

بالوظ : تمام يا سيدي. أنت علاّمةٌ في القانون. والله العظيم، عرفتَ في خمس دقائق ما لا يعرفه غيرُك في خمسين سنة.

آدم : مضبوط.

بالوظ : ولا تنس يا سيدي أن تأخذ أجرةَ المحكمة من المتخاصمين.

آدم : وأنت؟ ماذا تأخذ؟

بالوظ : أنا لا آخذ شيئاً. فقط أقوم بعمل الخير. ويجود عليَّ الخيِّرون بمالهم.

آدم : عال. نبدأ الشغل؟

بالوظ : نبدأ.

آدم : (يصرخ) القضية الأولى.

بالوظ : لا يفعلُ القاضي هكذا يا سيدي.

آدم : كيف يفعل؟

بالوظ : يكتبُ لأصحاب القضية أوراقاً ويرسلها مع الشرطة أو مع العسكر.

آدم : هذا أسلوبٌ طويلٌ ومعقدٌ ويحتاج إلى وقت.

بالوظ : لكنه ضروري.

آدم : لماذا؟

بالوظ : للحفاظِ على وقار القاضي. يذهب الشرطي إلى أصحاب القضية. يهددهم. يرفع مناخيرَه عليهم. يخوِّفهم ويلعنُ أنفاسَهم. فيحضرون خائفين. فإذا حضروا، نؤجِّلُ الدعوى عدةَ جلسات. وخاصة إذا كان التأجيل ينفع الرجالَ المحترمين أصحابَ المال والأراضي.

آدم : وبعد ذلك؟

بالوظ : تُكلِّفُني بدراسة الدعوى. فأقوم بالجهد والتعب عنك. وأجعلك ترتاح.

آدم : لأنك تحب فعلَ الخير.

بالوظ : تمام يا سيدي. وبعد تحضير الدعوى من قِبَلي ومطالعتي، تحكم بالعدل بين الناس. القضاءُ بسيطٌ يا سيدي. أهونُ من أكل الشوربة.

آدم : إذا كانت الدعوى لصالح أصحابك المرزوقين، فماذا تفعلون؟

بالوظ : نحكم فيها بجلسة واحدة. لأن العدل يحب السرعة.

آدم : وإذا كانت الدعوى لصالح خصومِهم الفقراءِ الحقراءِ الذين لا يفرقون بين المجيدي وطبقِ النحاس؟

بالوظ : نمطمط. ونؤجل. ونطرد ونشتم. والأفضل أن ننرفز ونصرخ. لأن العدل يحتاج إلى بيّنة.

آدم : مضبوط.

بالوظ : وإياك ثم إياك يا سيدي، أن ترأف بالفقراء المشاحيت ذوي البطون الكبيرة والعقول الصغيرة. قصف الله أعمارَهم وأدخلهم فسيحَ جهنَّماته.

آدم : لماذا؟

بالوظ : لأنهم لا يستحقون المعاملةَ الطيبة. بمجرد أن يشمّوا رائحةَ باطهم، يعنفصون ويتكبرون. لذلك، اكْسِرْ رأسَهم. ضَعْ بصلةً على أنوفهم. خَلِّهم دون رائحة باط.

آدم : عظيم أنت يا بالوظ. تعرف أصول الشغل جيداً.

بالوظ : أنا خادمكم يا سيدي.

آدم : نبدأ الشغل؟

بالوظ : نبدأ.

(آدم يقترب من طرف المسرح)

آدم : (يصرخ) القضية الأولى.

بالوظ : لا تصرخْ يا سيدي ولا تتكلمْ.

آدم : كيف ندعوهم؟

بالوظ : أنا أصرخ عنك. صوتُك ضروري وهام. يتوقف عليه سيرُ العدالة. أنا أقوم بالصراخ عنك.

آدم : اصرخ.

بالوظ : (ينادي) المدَّعى عليه، الفلاحُ المتَّهمُ الزنديق شَحّود بن مْهيد المصطفى. المدَّعي جُلباط بن شاهناه الأكرم.

(يدخل المدعيان. بالوظ يركض
وراء جلباط الذي يضع في يده مالاً)

آدم : ما هذا؟

بالوظ : هذا... يجود علينا الخيّرون بمالهم.

آدم : ما هي القضية؟

بالوظ : لا تسألْ يا سيدي. أنا أسأل عنك.

آدم : (يشد بالوظ من أذنه) أصدقتَ أني صدقتُك يا حمارة أم منهل؟ قف إلى جانبي ولا تتكلم.

بالوظ : حاضر يا سيدي. حاضر.

آدم : القضية.

جلباط : يا سيدي. هذا الرجلُ سرق من حقلي خمسَ دجاجات، وشُنْبُلَ حنطة، وأربعين بيضة.

آدم : هل فعلتَ ذلك يا شحود بن مْهيد.

شحود : ليس أنا يا سيدي. الفاعل هو "الخِضْر".

جلباط : أتصدِّقُ هذا الكلام؟

آدم : نسمعُ حكايةَ الخضر أولاً.

شحود : يا سيدي. جاءني الخضرُ في المنام. وقال لي: يا شحود. أنت فلاح عجوز. اشتغلتَ في أرض جلباط وأبيه شاهناه أربعين عاماً. ثم طردوك على الحديدة.

جلباط : كذاب. أعطيناه تعويضَه.

آدم : لا تقاطع الخضر.

شحود : قلت له: يا سيدي الخضر ماذا أفعل؟ قال الخضر: أنا أعوِّضُك يا شحود. ثم طار. طار. طار.

جلباط : الخضر يطير؟

آدم : لا تعرقلْ طيرانَ الخضر.

شحود : ثم عاد. وأحْضرَ لي، في المنام، دجاجة.

جلباط : خمس دجاجات. خمس دجاجات.

آدم : الخضر يقول: دجاجةٌ واحدة. الفرقُ أربعُ دجاجات.

شحود : ثم طار وأحضر لي، في المنام، مكيالَ حنطة.

جلباط : شُنْبُل حنطة. شنبل.

آدم : الخضر يقول: مكيال. الفرق شنبل ناقصاً مكيالاً.

شحود : وأحضر لي، في المنام، خمسَ بيضات. ما شاء الله يا سيدي. البيضُ يطير في السماء وينزل في حضني.

جلباط : أربعين بيضة. أربعين.

آدم : الخضر يقول: خمس بيضات. الفرق خمسٌ وثلاثون بيضة.

شحود : فتحتُ عيني من النوم، فوجدتُ هذه المأكولات في بيتي. سبحان الله يا سيدي. الخضر طبخ الدجاج. فهل أنا سارق؟

بالوظ : (لآدم) هذا رجل كذاب. كان يشتغل أجيراً عند جلباط بن شاهناه الرجل المحترم المهيوب.

آدم : (يمسكه من أذنه) اسكت يا قرد.

بالوظ : قصدي الدفاعُ عن الحق يا سيدي. شحود هو السارق. الخضر لا يطبخ ولا ينفخ.

آدم : (إلى جلباط) ما حكايةُ الشيخ الأبيض بأبيض الذي جاءك في المنام؟

جلباط : (فرحاً) تعرف الحكاية؟

آدم : سمعتُ عنها.

جلباط : أنت وليٌّ من أولياء الله. سوف تحكم لي بالحق.

آدم : أخبرني عنها.

بالوظ : حكايةٌ عظيمة.

جلباط : يا سيدي. توضأتُ ونمتُ علطهارة. في منتصف الليل جاءني شيخ. وجهُه مثلُ البدر الأبيض. عمامتُه بيضاء. ثيابُه بيضاء. شعرُه أبيض. جاءني في المنام وهو يحمل إليَّ على يديه جارتي " زنوبة "، ووضعَها في فراشي، وقال لي: يا جلباط. جارتُك زنوبة مظلومةٌ عند أهلها. حرام. أحْضِرْها إلى بيتك لتكسب الثواب.

آدم : وضعها في فراشك؟

جلباط : أي والله يا سيدي. كأنك معي في المنام.

آدم : فذهبتَ إليها وأحضرتَها إلى بيتك.

جلباط : أي والله يا سيدي. كأنك معي في المنام.

آدم : ولكي تكسب الثواب تزوجتَها من غير زواج.

جلباط : هكذا طلب مني الشيخ الأبيض بأبيض.

آدم : فلما غضبت البنت ورفضت النوم في فراشك، رفعتَ عليها الكرباج.

جلباط : العصا من الجنة. بسبب الكرباج، لانتِ البنتُ واستكانتْ وعاشتْ أحسنَ عيشة.

آدم : أهي جميلةٌ يا جلباط؟

جلباط : مثلُ البدر المصَوَّر.

آدم : وتستحقُّ كلَّ هذا الثواب عند الله؟

جلباط : تستحق وأكثر. أنت تفهم بالنساء. ستحكم لي بالحق.

آدم : أتصدِّقُ حكايةَ الشيخ الأبيض بأبيض يا زنديق يا كافر يا مطَيِّرَ البنات إلى فراشك؟

(بالوظ يقفز عدة مرات مرتعداً)

بالوظ : لا تقل له ذلك يا سيدي. هذا جلباط بن شاهناه.

جلباط : أنا رجلٌ تقيٌّ ورع. أصلي وأصوم. ولذلك يأتيني الأولياء في المنام. اسأل بالوظ أفندي.

بالوظ : تمام يا سيدي. تمام.

آدم : كيف تأكل في رمضان أذانَ الظهر؟

جلباط : نسيان يا سيدي القاضي. نسيان. أكْلُ النسيان من طعام أهل الجنة.

آدم : يا جلباط. أنا، البارحة، رأيتُ الشيخَ الأبيض في المنام.

جلباط : أنت مثلي يا سيدي. ستحكم لي بالحق.

آدم : طلب مني، في المنام، أن أذهب إلى بيتك.

جلباط : أي والله يا سيدي. كأني كنتُ معك في المنام.

آدم : وأدخلَ إلى غرفتك.

جلباط : وأصنعَ لك وليمةً دسمة. فيها لحمُ طيرٍ مما يشتهون، وخمرٌ مما يشربون.

آدم : قال لي الشيخ الأبيض بأبيض، في المنام: يا آدم. امرأةُ جلباط وحيدةٌ مهجورة. زوجُها مشغولٌ عنها بكسب الثواب عند الله مع زنوبة. ادخُلْ في فراشها.

جلباط : أي والله يا... ماذا قلتَ يا سيدي؟

آدم : هكذا قال الشيخ الأبيض بأبيض. طلب مني النومَ في فراش زوجتك. أكسبُ الثواب.

جلباط : لا يمكن. لا يمكن.

آدم : تصدِّقُ حكايةَ الشيخ الأبيض، ولا تصدق حكايةَ الخضر يا آكل الأموال؟

جلباط : لماذا لا يأتي إليَّ الخضر وأنا جلباط؟

آدم : حكمتْ عليك المحكمة أن تعطيَ شحود بن مهيد الفلاح خمساً وثلاثين بيضة حتى يتم العدد أربعين. وشنبلَ حنطة ماعدا مكيالاً حتى يمتلئ الشنبل. وأربعَ دجاجات حتى يصير العدد خمس دجاجات. ويُعفى جلباط بن شاهناه من طبخ الدجاج لأن الخضر يتكفَّلُ بالطبخ والنفخ.

جلباط : آه. قتلتَني يا سيدي. أصدقتَ أن البيض يطير في السماء؟

آدم : أتُنكِر كراماتِ الخضر؟ بالوظ. اجلُدْه عشر جلدات.

جلباط : أصدق. أصدق.

آدم : وحكمت المحكمة على بالوظ بدفع ما أخذه من جلباط إلى شحود.

بالوظ : لم آخذْ شيئاً يا سيدي. هذا... "يجود علينا الخيرون بمالهم".

آدم : هات الكرباج يا شحود.

بالوظ : أدفع. أدفع.

آدم : كم أخذت من جلباط؟

بالوظ : عشرةَ مجيديات.

آدم : ادفعْها.

شحود : أيسمحُ سيدي القاضي أن أترك العشرةَ مجيديات لبالوظ وأضعَه على الخازوق؟ نفسي تشتهي ذلك من أيام القاضي السابق.

آدم : فكرةٌ عظيمة.

بالوظ : أنا خادمك يا سيدي وتضعني على الخازوق؟

آدم : تتمتَّع.

بالوظ : أنا؟

آدم : عفونا عنك هذه المرة. انتهت الجلسة.

جلباط : (يخرج) آه. آه.

شحود : (إلى بالوظ وهو خارج) أخْبِرْني إذا وافقتَ على الفكرة.

آدم : استعدَّ للرحيل يا بالوظ.

بالوظ : إلى أين؟

آدم : نقوم بمهمة القضاء.

بالوظ : القاضي يبقى في مكانه والناسُ يأتون إليه.

آدم : نرحل لنشاهد الدنيا.

(يجران معهما كرسي القضاء ويرحلان)

الراوي1 : وهكذا بدأ آدم رحلتَه الطويلة بين الدساكر والقرى.

الراوي2 : قانونُه غريبٌ وعدلُه أغرب.

الراوي1 : لأنه فقير لا يملك شيئاً، فسَّرَ القانونَ كما يريد.

الراوي2 : لو كان غنياً وصاحبَ أرض، لفسَّر القانون أيضاً كما يريد.

الراوي1 : لكن تفسيرَ القانون على شكلٍ ما، يعني بالتأكيد قانوناً جديداً.

الراوي2 : هل تستغربون إذا قام الآغا السابق بتحريف قانون الإصلاح الزراعي كما يريد، فأوجدَ لنفسه قانوناً جديداً يحميه؟

الراوي1 : هل تُنكرون على حمدان إذا فتش لنفسه عن قانونٍ جديدٍ يحميه؟

الراوي2 : وأنتم؟ أيَّ قانون تقترحون؟

الراوي1 : انتظروا. ستواجهون هذا السؤالَ فيما بعد.

الراوي2 : نعود الآن إلى آدم وبالوظ.

(يدخل بالوظ وآدم. بالوظ يجر كرسي القضاء. آدم يجر كتاب القانون. بالوظ يتهاوى على الأرض ويئن من التعب)

آدم : بالوظ.

بالوظ : (يئن ولا يرد)

آدم : أنت تغني يا بالوظ؟ غناؤك جميل.

بالوظ : أنا لا أغني. أنا أئنّ وأعنّ وألعنُ والدَ والدي.

آدم : أنت تغني لأنك مبسوط يا بالوظ. تحتاج إلى رقَّاصة. أنت تغني وهي ترقص. لماذا لا تغني وترقص أنت؟

بالوظ : أنت تُتعبني يا سيدي.

(يدخل الملاك والفلاح)

آدم : اسكتْ. جاء الشغل.

(الملاك يجر الفلاح ويرميه أمام آدم)

الملاك : هذا هو السفاحُ اللصُّ السرَّاقُ المعتدي.

آدم : مضبوط.

بالوظ : (مشيراً إلى الملاك) هذا الرجلُ عندي.

آدم : بالوظ.

بالوظ : اتركْ لي واحداً يا سيدي. واحداً فقط. وسوف ترى.

آدم : سمحتُ لك به.

(بالوظ يحاور الملاك ويأخذ منه مالاً)

آدم : (إلى الفلاح) ماذا تشتغل أنت؟

الفلاح : فلاح.

آدم : (بقرف) فلاح؟ طز.

بالوظ : صرتَ تعرف كيف تكلم الفلاحين يا سيدي. ستصير غنياً حتى أولاد أولادك.

آدم : (إلى الملاك) وأنت؟

الملاك : أنا ملاّك أراضٍ.

آدم : أهلاً بابن الأوادم. ابن الحسب والنسب. ابن الأكابر. ابن فضيل مثلَ الشهر الفضيل.

بالوظ : (فرحاً) صرتَ تعرف كيف تكلم الأغنياء يا سيدي. ستصير مثلهم ابنَ حسب ونسب.

آدم : بينكما قضية؟

الملاك : نعم.

آدم : ادفعا أجرةَ المحكمة. أنت يا فلاح يا وضيع. أجرةُ المحكمة عليك تفاحة.

الفلاح : لا أملك تفاحاً يا سيدي.

الملاك : كذاب. جلدُه محشوٌّ بالمجيديات.

آدم : صارت الأجرةُ تفاحتين يا كذاب يا من جلدُك محشوٌّ بالمجيديات.

الملاك : ويملك شجرةَ زيتون يا سيدي.

آدم : تملك شجرةَ زيتون يا فلاح؟ آه. أقول من يرفع سعرَ الزيت والزيتون؟

الملاك : وغنمتين.

آدم : تملك غنمتين أيضاً؟ أقول من يحتكِرُ الأغنامَ ويرفع سعر اللحم. تملك غنمتين ولا تستحي يا أكبر غنّام في هذا البلد؟

الملاك : وعنده في البيت بِساطٌ يا سيدي.

الفلاح : بساطٌ عتيقٌ مثقوبٌ من مائة طرف.

آدم : أقول من يفرش السجاد في داره ولا يترك في السوق سجادة؟ تمدُّ في بيتك بساطاً مثقوباً ألفَ ثقب ولا ترحم أصحاب السجاجيد، وتدَّعي أنك فقير.

الملاك : عنده حذاءٌ أيضاً.

آدم : قديمٌ أم جديد؟

الملاك : كان جديداً. بصطار سميك لا يفنى. يحمله معه دائماً لأنه ثمين ويخاف عليه.

آدم : هل ضربك به على رأسك؟

الملاك : لا يجرؤ يا... نعم. نعم. ضربني على رأسي، وكسر بابَ بيتي، وأجهضَ امرأتي، وفعل بي مائةَ فعلة.

آدم : (إلى الفلاح) قل إنك جعلتَ بصطارك سيفاً تقطعُ به الرؤوسَ يا فلاح بغنمتين وزيتونة وبصطار عتيق؟

الملاك : وله زوجةٌ أيضاً.

آدم : قل إنك شرقتَ الدنيا مثل البيضة. (إلى الملاك) هل تريد أن تنتقم منه لأنه أجهض امرأتَك؟

الملاك : أريد.

آدم : نجعله يذهب إلى بيتك، ويعوِّضُ عليك إجهاضَ امرأتك.

الملاك : لا أريد. لا أريد.

آدم : العدالةُ تريد.

الملاك : سامحتُه عن هذا.

آدم : ا ترى يا فلاح؟ سامحك هذا الملاك الكريم. هات تفاحتين أجرة المحكمة.

الفلاح : ليس معي.

آدم : تخَيَّلْ يا فلاح. تخيل. محروم ولا تعرف التخيل؟

الفلاح : لا أعرف.

آدم : اقترب مني حتى أرى.

بالوظ : خذ منه المجيديات يا سيدي. هذه فرصة.

آدم : (يمد يده إلى جيب الفلاح ويستخرج تفاحتين وهميتين) هـه. تكذب وتقول ليس معك تفاح؟ قف مكانك. (إلى الملاك باحترام مصطنع) ادفعْ أجرةَ المحكمة يا سيد.

الملاك : تفاحتين؟ (يعطيه تفاحتين وهميتين) على عيني.

آدم : التفاحُ ليس من مقامك. أنت تدفع عشرين مجيدياً فقط.

الملاك : هيه؟ عشرين مجيدياً؟

آدم : أتعتبر ذلك قليلاً؟ على عيني. ادفع ثلاثين.

الملاك : ثلاثين؟

آدم : المبلغُ قليلٌ يا ابن الأكابر يا حباب يا ابن الأصول بلا فصول؟ على عيني. ادفع خمسين مجيدياً.

الملاك : خمسين؟

آدم : المبلغ صغير على مقامك؟ على عيني.

الملاك : أدفع. أدفع.

آدم : الآن تبدأ المحاكمة. (إلى الملاك) ما هي دعواك؟

الملاك : يا سيدي. هذا الفلاح النتن، سرق مني قطعةَ أرض تساوي لحيةَ أبيه.

آدم : يا لطيف.

الملاك : زرعها شجراً. فقلتُ: أسكتُ وأنتظر.

آدم : عظيم.

الملاك : فلحها وزرع حول الشجر قمحاً. فقلت: أسكتُ وأنتظر.

آدم : عظيم. عظيم.

الملاك : سقاها من ماء النهر الذي هو نهري.

آدم : كيف صار النهرُ نهرَك؟

الملاك : رزقٌ من الله وفضلٌ عظيم. ويرزقهم من حيث لا يحتسبون.

آدم : مضبوط. وماذا فعل هذا الفلاح بعدما سقى الأرضَ من نهرك؟

الملاك : بنى بيتاً.

آدم : يا لطيف. يا لطيف.

الملاك : قلت لنفسي: اليوم يفهم ويترك الأرض. غداً يفهم ويتنازل لي عن الأرض. بعد غد يفهم ويردُّ الأرضَ إلى أصحابها. لكنه "طَنَّش". لذلك، جئتُ اليوم وأردتُ أخذَها منه.

آدم : فرفض الملعون.

الملاك : نعم. رفض.

آدم : لص. سارق. ماذا تقول في هذه التهمة يا فلاح؟

الفلاح : يا سيدي. الأرضُ كانت أرضي. قطعةٌ صغيرةٌ لا تكاد تكفي أسرتي. جاء وكيل الوالي الأكبر وطردني منها وكتبها على اسم هذا الرجل. لم يأخذْ أرضي وحدها. أخذ أراضيَ القرية كلها. فاشتغل الفلاحون في أرضه أُجَراء.

الملاك : دفعتُ لهم أجرتَهم. ألا تراه؟ على قيد الحياة حتى الآن.

الفلاح : جُعنا في أرضنا التي صارت أرضَه.

الملاك : كذاب وطماع وحقود. يملك شجرة زيتون وبساطاً عتيقاً. يمدُّ عينَه إلى رزقي ولا يشكر الله على هذه النعم المباركة.

آدم : صحيح كذاب. يملك كل هذه النعم ويدَّعي أنه جائع.

بالوظ : أترى يا سيدي؟ حجةُ هذا الملاك واضحة. يقبلها العدلُ والقانون.

آدم : أَتْمِمْ كذبَك يا فلاح.

الفلاح : ذهبنا إلى هذا الملاك واشترينا منه أرضَنا التي سرقها منا. زرعناها شجراً، فأعطت ثمارَها. زرعناها قمحاً

فآتت أُكُلَها ضعفين. بنينا كوخاً أوينا إليه. شعرنا بالسعادة وقلنا: نحن بحالنا وهو بحاله. نحن نعيش وهو يعيش. وكنا مخطئين بهذا القول. فبعدما أينع الزرعُ على سوقِه، واكتملَ الثمرُ على أعراشه، جاءنا يقول: هذه أرضي. وأراد أخذَها من جديد.

الملاك : نريد حكمَك أيها القاضي العادل. وأتعابُ العدل محفوظة.

بالوظ : اتخذْ إجراءاتِ العدل السريعة يا سيدي. أتعابُ العدل محفوظة.

آدم : سأُصدر حكمي. يا فلاح. تعطي ابن الأكابر هذا، شجرةَ الزيتون.

الملاك : ومعها القمحُ المزروع.

آدم : ومعها القمح المزروع.

بالوظ : تمام يا سيدي. أنت بحرٌ في القانون.

الفلاح : من أين آكل يا سيدي؟

آدم : تناقش المحكمة؟ عقوبتُك عشرة مجيديات.

بالوظ : هذا هو العدل.

آدم : وتعطيه بساطَك المثقوب ألف ثقب، حتى يجعله لوحةً زيتيةً في بيته.

الملاك : أجعله ممسحة.

آدم : المحكمة قالت: لوحة زيتية.

الملاك : طيب. طيب. لوحة زيتية.

بالوظ : اشْفُطْ هذا الفلاح يا سيدي. لا تتركْ له جلداً على عظم. هذا هو القانون.

آدم : وتعطيه البصطارَ السميك ليعلِّقَه في رقبته. هيا. نفِّذْ هذا الحكمَ فوراً.

الملاك : لا أريد البصطار.

آدم : عقوبتك عشرة مجيديات لأنك عارضتَ المحكمة.

الملاك : أنفذ. أنفذ.

(الفلاح يضع البصطار على عنق الملاك)

آدم : أما أنت يا فلاح، فعقوبتُك خفيفة.

بالوظ : العدل يحب التخفيف. المسامحةُ أصل القانون.

الملاك : أنا تحت الأمر. وأتعاب العدل محفوظة.

آدم : تدفع العشرةَ مجيديات التي رفضتَ دفعَها. والعشرين التي استنكرتَها. والثلاثين والأربعين مجيدياً التي لم تدفعها. والستين التي لم نذكرها لغباء المحكمة. والسبعين التي نسيناها لذكاء المحكمة. والثمانين التي ترى المحكمة أنها بعد التسعين. والتسعين التي ترى حضرةُ المحكمة أنها قبل المائة. والمائةَ التي ترى محكمتُنا الموقرة أنها رقم جميل. وتضع كلَّ ذلك فوق الخمسين أجرةَ أتعاب المحكمة. أنت مبسوط من هذا الحكم

العادل. (الملاك يتأوه) أنت تغني مثل بالوظ. غَنِّ معه يا بالوظ. آه. غناؤك جميل يا ملاك يا ابن الأكابر. ارقصْ مع الغناء. رقصُك جميل. ادفعْ أتعاب العدل مائة مجيدي وانتقلْ إلى نغم البيات. جميل. جميل. ادفع مئة مجيدي لأنك تُطرب المحكمةَ وانتقلْ إلى نغم النهاوند. (يتوقف الملاك عن التأوه) هذه المجيديات القليلة تدفعها لهذا الفلاح النتن حتى يفتح بها مدرسةً في القرية.

الملاك : من مالي أُعلِّمهم؟

آدم : أنا قلتُ تدفع من جيبك؟ أتكذِّب المحكمة يا ابن الأكابر؟ ادفع العشرة مجيديات عقوبةَ الفلاح. وعشرين مجيدياً لأنك كذَّبتَ المحكمة.

الملاك : هذا حكمٌ ظالم.

الملاك : هات الكرباج يا بالوظ.

الملاك : حكم عادل. حكم عادل.

آدم : وتُعيد للفلاح أرضَه ولكل الفلاحين أراضيهم.

الملاك : إنها أرضي.

آدم : طبعاً أرضُك. أعطاها لك الوالي الأكبر بفرمان من السلطان شاهنشاه خاقان البرّين وسلطان البحرين والمضروب على قلبه مرتين.

الملاك : وتعطيها له يا سيدي؟

(آدم يشهق مستغرباً)

آدم : أنا أعطيها له؟ أنت تردها إليه مع شجرة الزيتون والقمح.

الملاك : ماذا أبقيتَ لي يا سيدي؟

آدم : أبقيتُ لك ذراعيك. احملْ فأسَك واشتغلْ. ألا ترى؟ المحكمة تشتغل. وهذا الفلاح يشتغل. أم أن الشغل عيب يا ابن الأكابر؟

الملاك : لا أقبل.

آدم : الخازوق يا بالوظ.

الملاك : قبلت. قبلت.

آدم : انصرفا من هنا واتركا المحكمة تنام.

(يخرج الملاك متأوهاً)

الفلاح : أنصفتَني يا سيدي.

آدم : القانون أنصفك يا غبي. اذهب. المحكمة تريد أن تشخر.

(الفلاح يذهب)

آدم : قل لي يا بالوظ. كم أخذت منه؟

بالوظ : (ينام على الأرض) المحكمة تشخر.

(آدم يضربه بالكرباج)

بالوظ : **لم آخذ شيئاً.**

آدم : **تعال إلى المشنقة.**

بالوظ : **عشرة مجيديات. والله العظيم أقول الحق ولا شيء غير الحق.**

آدم : **اعتبرْها من راتبك الشهري. هيا. سنرحل.**

بالوظ : **نرحل؟ آه.**

آدم : **قل لي يا بالوظ. كم مرة حذرتُك من الرشوة؟**

بالوظ : **كثيراً. لكني لا أستطيع تركَها.**

آدم : **لماذا؟**

بالوظ : **الرشوة طبع.**

آدم : **الكرباج لا يغير هذا الطبع؟**

بالوظ : **الموت ولا ترك الرشوة. جَرِّبْ لذتَّها يوماً.**

آدم : **سأجرِّبُ فيك هذا الكرباج.**

(بالوظ يجر الكرسي. آدم يلحق به
وهو يجر كتاب القانون. يخرجان)

(يدخل الراويان)

الراوي1 : **وحار الناسُ في آدم.**

الراوي2 : **أهو مجنون أم شاعر أم مجرد فلاح بسيط؟**

الراوي1 : **أحكامُه كانت أكبرَ من التحمُّلِ أو الفهم.**

الراوي2 : **لكن البسطاء أحبوه، والفقراءَ لجؤوا إليه. فقد أنصفهم واستردَّ لهم بعضَ حقوقهم.**

الراوي1 : **وبينما كان يجر وراءه كرسيَّه وبالوظه، كانت أحداثٌ كبيرةٌ تجري.**

الراوي2 : **فقد انتصر الوالي الأكبر على الوزير، وعاد إلى منصبه أقوى مما كان.**

الراوي1 : **وانتهت الحرب. وعاد الجنود إلى قراهم. من ظل حياً منهم بالطبع. وبدا أن الأمور هدأت واستقرت.**

الراوي2 : **وهند أيضاً. عادت خِفْيةً إلى قريتها وانتظرت تامر بلهفة.**

(تدخل هند حاملة ولدها بعد أن بلغ من
العمر ثلاثة أعوام . هند تبدو أكثر جرأة.
وقد تفتح وعيها في الأعوام الثلاثة
الماضية. يدخل تامر)

تامر : **الخادمة هند هنا؟ قلتُ إنها ستنتظرني تلك الخادمةُ الجميلة.**

هند : لستُ خادمةً يا تامر.

تامر : وماذا صارت الخادمة؟ سيدة؟

هند : لستُ سيدة.

تامر : لا خادمة ولا سيدة؟

هند : أما يزال الناس عندك سادةً أو خدماً عند السادة؟

تامر : أيكون الناس غيرَ خدم وسادة؟

هند : ألا يوجد عندك غيرُ هذا التقسيم يا تامر؟

تامر : وهل يوجد ناسٌ ليسوا خدماً وليسوا سادة؟

هند : يوجد الناس المتساوون. الذين يجدون كأسَ الحليب إذا جاع طفلهم، والبيتَ الذي يسكنون فيه فلا يتشردون، واللقمةَ الكافية التي تجعل كلاً منهم سيدَ نفسه. يوجد ناسٌ كلُّهم سادةٌ يا تامر.

تامر : يعني... تريدين إبطالَ الخدم والسادة؟

هند : لن تفهم يا تامر.

تامر : أفهم أني أتلهَّفُ لرؤية هند. خادمةً كانت أم سيدة.

هند : كيف انتهت الحرب؟

تامر : فجأة انتهت. انتصر الوالي الأكبر، فقالوا لنا: عودوا إلى قراكم.

هند : مع من كنتَ تحارب؟

تامر : لا أعلم.

هند : حاربتَ ثلاثة أعوام، ولا تعرف مع من كنت تقاتل؟

تامر : وهل يدري أحد؟ مرة يقولون لنا: أنتم مع الوالي الأكبر. مرة: أنتم مع الوزير. ونحن نقاتل على عماها.

هند : أيقاتل أحدٌ على عماها؟

تامر : أنا.

هند : أكنتَ تنهب القرى وتقتحم البيوتَ يا تامر؟

تامر : مثل الآخرين.

هند : ألا تخجل من نفسك؟

تامر : لماذا؟

هند : فلاح وتنهب الفلاحين؟

تامر : لم أسأل نفسي هذا السؤال. كنت أقبض راتبي أول الشهر وكفى. لكن... ماذا تقول هند؟ كأنها تغيرت.

هند : كنتُ أتوقع أن تهرب وتأتي لتحميني؟

تامر : أهرب وأترك الراتب؟

هند : ما شأنُك أنت بحرب الوالي والوزير؟ لصان يتقاتلان.

تامر : أقسم إن هند لم تكن تتكلم هكذا.

هند : هذه الأعوامُ الثلاثة علَّمتني الكثيرَ يا تامر.

تامر : هل تعلمت هند أن لا تحبني؟

هند : أولُ ما تعلمتُه أن أظل أحبُّك.

تامر : أحضرتُ لك سواراً من الذهب.

هند : لا أستحقه.

تامر : السوارُ علامةُ الخطبة. إذا جاء تامر يخطب هند، فمتى تتم الموافقة على العرس؟

هند : لا أستطيع يا تامر.

تامر : لا تستطيعين؟ أيوجد شيء؟

هند : يوجد.

تامر : ما هذا الطفل معك يا هند؟

هند : ابني. لكنه ليس ابني.

تامر : هذا كلام مجانين. أهو ابنُك؟

هند : نعم.

تامر : وليس ابنَك؟

هند : ليس ابني. ومع ذلك، فهو ابني.

تامر : أين المصحفُ والسلسال؟

هند : ليسا معي.

تامر : هل تزوجتِ يا هند؟

هند : نعم. لكني كما أنا. لم يلمسني أحد.

تامر : المهم أنك تزوجت.

هند : الظروف أجبرتني.

تامر : هاتي السوار.

هند : لن تفهم يا تامر. الحربُ تفعل الكثير وتعلِّم الكثير. لكنك لم تعرف مع من كنتَ تحارب؟ ولماذا كنتَ تحارب؟ لذلك، لن تفهم حتى لو شرحتُ لك. طلبتُ منك أن تحميني ولم تفعل.

تامر : لا تكلميني.

هند : (تنظر إليه ولا تتكلم. ثم تذهب)

تامر : أحميها؟ من أي شيء؟ خائنة.

(يخرج تامر. تدخل مجموعة من الناس

يجرون بينهم آدم. بالوظ يجر المشنقةَ
وكرسيَّ القضاء ويقفز فرحاً. يدخل
وراءهم جلباط والملاك)

آدم : أنا القاضي الأول يا هوه.

بالوظ : سيقطع الوالي الأكبر رأسَك.

جلباط : الخضرُ يسرق البيضَ يا كافر؟

الملاك : تضع البصطار في عنقي؟

بالوظ : جُرّوه إلى الخازوق.

(يدخل الوالي الأكبر ومعاونه. يهدأ
الجميع. آدم يقف بينهم حائراً)

الوالي الأكبر: أما عرفتني يا آدم؟

آدم : بصراحة؟ لا.

الوالي الأكبر: ألا تعرف عني شيئاً؟

آدم : أعرف أن هؤلاء المجاذيب خافوا منك مثل الفئران. لوكنتَ الوالي الأكبر بكل وساخته، لما خافوا منك أكثر.

الوالي الأكبر: ألا تخاف أنت من الوالي الأكبر؟

آدم : يمكن نعم. ويمكن لا. حسب الظروف. سمعت أن الوالي الأكبر عاد إلى العرش ومازال وسخاً كما كان. يقال إن رائحةَ فمه لا تُطاق. أف... أنت أيضاً رائحةُ فمك لا تطاق.

الوالي الأكبر: أنا الوالي الأكبر.

آدم : أكيد؟ (يشم رائحة فمه ثانية) مضبوط. رائحة فمك كريهة. اسمع. لماذا لا تغسل فمَك قبل النوم؟

الوالي الأكبر: هذا كلام تستحق عليه الشنق.

آدم : (ضاحكاً) سيفرحُ بالوظ. افرحْ يا بالوظ. سيشنقني الوالي الأكبر. أنا أراك. تضحك على الساكت يا ملعون.

الوالي الأكبر: أتذكر الرجلَ الذي جاءك في الليل وأطعمتَه ووضعتَ في جيبه أربعة مجيديات؟

آدم : أذكره. أعطيتُه كل ما أملك. الملعون. رائحةُ فمه كريهةٌ مثلك.

الوالي الأكبر: أنا هو ذلك الرجل.

آدم : واضح.

الوالي الأكبر: لأنك أنقذتَني يا آدم، فقد عفونا عنك.

آدم : مُتْ بغيظك يا بالوظ. لن يشنقني الوالي الأكبر. الآن تبكي على الساكت.

الوالي الأكبر: وسوف أثبِّتك في منصب القاضي الأول.

آدم : اسمع يا بالوظ.

الوالي الأكبر: يا معاوني. اكتب فرماناً بهذا الخصوص. يُعَيَّن الفلاح آدم قاضياً أول في كل الولاية. أمرُه مطاع وقضاؤه نافذ. باشِرْ عملك يا آدم.

(يقف الوالي الأكبر ومعاونه في طرف
المسرح. ينصرف الجميع خائفين.
بالوظ يحاول الهرب)

آدم : بالوظ. تريد شنقي يا بالوظ النجاسة؟

بالوظ : أنا أحبك يا سيدي. لكنهم طلبوا مني ذلك.

آدم : مَن؟

بالوظ : هؤلاء.

آدم : الملاك الحقير المكَدَّن على البصطار، وجلباط ابن الكلب صاحب الشيخ الأبيض بأبيض؟

بالوظ : نعم.

آدم : ووافقتَهم؟

بالوظ : لا أقدر على مخالفتهم يا سيدي. أحبهم. حتى لو ضربوني أو شتموني فإني أحبهم. الحب لا يرحم.

آدم : لماذا تحبهم؟

بالوظ : لأنهم أغنياء. أنا لا أقدر على كُرْهِ الأغنياء.

آدم : سأجعلك تكره حياتك. سأجعلها أسوأ من القطران. سأجلدك كل يوم خمسين جلدة. امش أمامي واضربْ نفسك عشر جلدات.

(يخرجان. يظهر الوالي الأكبر ومعاونه.
الوالي الأكبر يتأمل خروج آدم ساخراً
ومتلذذاً بطرافة شخصية آدم)

الوالي الأكبر: أرأيتَ هذا المنظر؟

المعاون : شخصٌ خطير. توقعتُ أن تقطع رأسه.

الوالي الأكبر: أنقذني من الهلاك يا رجل.

المعاون : ألهذا أهمية؟

الوالي الأكبر: كيف تكون معاوني إذا لم تفهم سياستي؟

المعاون : أعترف أني لم أفهم.

الوالي الأكبر: سيشيع عني أني وفيٌّ أحفظ الجميل.

المعاون : منصب القاضي الأول منصب كبير.

الوالي الأكبر: لهذا وضعتُ فيه هذا الأجدب. رجلٌ تافهٌ في منصب خطير. فيظل معلقاً بي. أنا أحكم وأصدر الأوامر وهو ينفذها. ويقال عني إني وفيٌّ أحفظ المعروف.

المعاون : أحكامُه لا تعجبني.

الوالي الأكبر: ليتصرفْ كما يشاء. سيقولون إن الوالي الأكبر مع الفلاحين. هو يعطيهم. ونحن نأخذ منهم. ونكسبُ الوجهَ الأبيض. ألم تفهم بعد؟

المعاون : فهمت. لكن هذا الرجل مخيف.

الوالي الأكبر: (يضحك) يا غبي. أرأيتَ فلاحاً يُخيف؟

(يخرج الوالي الأكبر والمعاون)

(يدخل الراويان)

الراوي1 : أرأيتَ فلاحاً يُخيفْ؟

أرأيتَ عيناً قاومت حدَّ المخارزْ؟

إن قيلَ: فلاحٌ يثورْ،

فلسوف نُنكِرُه بهذا القدْرِ من وَعي الظُّلامةْ.

سنقول: هذا الأعجفُ المعروقُ أدنى من رجولاتِ الكرامةْ.

سنقول: فلاحٌ وجوعانٌ ومجروحُ النزيفْ.

الراوي2 : لكن عينَ الوعي تَجْبَه كلَّ أنواع المخارزْ.

ولسوف تُدميها السيوفُ تحزُّ مقلتَها،

لتجبِرَها على القهرِ.

ويسيل دمعُ العين ممزوجاً بدفق الدمْ،

فيكون بلسمَها،

ويشفيها، ويجعلها حديداً صُبَّ من لحمٍ ودمْ.

فيصير هذا الأعجفُ المعروقُ فلاحاً يخيفْ.

(يخرجان. يدخل آدم وبالوظ)

آدم : تهيأ يا بالوظ. أمامنا اليوم عملٌ كثير.

(تدخل العجوز ونوزات خانم. كلتاهما

تشد هند ومعها الطفل. وراءهن تامر)

العجوز : سيقصف القاضي عمرَك يا شمطاء.

نوزات : هذه هي السارقة.

آدم : قبل كل شيء، أجرةَ المحكمة.

العجوز : (تدفع) الأجرة وحبة مسك.

نوزات : الأجرةُ وخمسةُ أضعافها.

آدم : (إلى هند) أين أجرة المحكمة؟

هند : ليس معي.

آدم : كيف أحكم لك أو عليك من غير أجرة؟

هند : لن أتقيد بحكمك إن حكمتَ من غير عدل.

آدم : وتُهينين المحكمة؟

نوزات : طبعاً. سارقة. لصة. لا تحترم القانون.

آدم : من أنت؟

بالوظ : هذه نوزات خانم زوجةُ كاظم باشا.

آدم : الذي قطعوا رأسه؟

بالوظ : نعم.

آدم : لماذا لم يقطعوا يديه أيضاً؟

نوزات : احترمْ حزني على زوجي أيها القاضي.

بالوظ : احذرْ من الكلام معها يا سيدي. هي الآن صديقةُ الوالي الأكبر.

العجوز : اسمع قضيتي. دفعتُ الأجرةَ وحبةَ المسك.

آدم : أنت امرأة طيبة. ادفعي الأجرة وحبة المسك مرة ثانية.

العجوز : نعم؟

آدم : وادفعي عن هذه اللصة عقوبةَ إهانتها للمحكمة.

العجوز : نعم؟

بالوظ : ادفعي يا سيدتي. ادفعي. اسأليني أنا. (العجوز تدفع)

آدم : (إلى العجوز) ما هي الدعوى؟

العجوز : هذه زوجة ابني. تزوجتْه من هنا، وهربتْ من هنا.

آدم : أين زوجها؟

العجوز : لا يستطيع الحضور.

آدم : لماذا؟

العجوز : خجول. لا يتكلم.

هند : أخرس وأطرش وأبله.

آدم : زوج لُقطة.

العجوز : لقطة وهربت منه.

هند : أرادتني على شيء لا أريده ولا يرضاه أحد.

آدم : يعني... (يشير إلى هند أن تقترب منه. يهمس لها) أرادت كسبَ المال من جسدك؟

هند : نعم.

(آدم يصرخ في وجه هند)

آدم : صحيح أنك غبية. حماتُك وتريد زيادةَ مالها. أشفقي عليها.

العجوز : لو طاوعتْني، لكسبت خيرَ الدنيا وثوابَ الآخرة.

آدم : طبعاً.

العجوز : أجْبِرْها على الرجوع إلى البيت وتنفيذِ ما أطلبه منها، وأجعلُك شريكاً فيها. لك الثلث. ولي الثلث. ولها الثلث. وأكلُها عليها.

آدم : معقول. (إلى نوزات) ما تهمتُك عليها؟

نوزات : سرقت ابني طوران.

هند : هي التي تركته. وجدتُ طفلاً صغيراً لا يرعاه أحد. ربيتُه حتى صار كما ترى. إنه حسن وليس طوران. ابني حسن. أبو علي.

آدم : وتدَّعين أنه ابنُك يا سارقة؟

هند : ابني. ابني. رغماً عنك وعنها.

آدم : وتُغضبين المحكمة؟ (إلى نوزات) ادفعي عنها عقوبةَ إغضاب المحكمة.

نوزات : أنا لا أدفع.

بالوظ : ادفعي بالتي هي أحسن. اسأليني أنا.

آدم : (إلى نوزات) كيف تركتِ ابنَك لهذه اللصة؟

نوزات : استغلَّت انشغالي بالسفر وسرقت الطفل.

هند : هربتْ بجلدها بالسفر وتركت ابنَها. فلما عفا عنها الوالي الأكبر لأنها جميلة، بدأت تفتش عن ابنها لأنه وريثُ أموال أبيه. إذا لم تجدْه فلن تأخذ مجيدياً واحداً. ولذلك تريده.

(يتجمد المشهد. يدخل الراويان)

الراوي1 : هذه هي الحكاية التي اقترحها محمود الغبش على أهل القرية في أول المسرحية. بقي آخرُ نقطة فيها. قضيةُ الآغا وحمدان والحكمُ فيها لمن تكون الأرض؟

الراوي2 : تعال يا آغا.

الراوي1 : تعال يا حمدان.

الراوي2 : قضيتُكما بين يدي القاضي آدم.

الآغا : المحكمة معقودة؟

الراقي2 : نعم.

(ينسحب الراويان)

(يتقدم حمدان والآغا من آدم)

آدم : ما هي القضية؟

الآغا : أرضي بصك القانون. استولى عليها هذا الفلاح.

حمدان : أرضُه بصك القانون. لكنه لا يشتغل فيها. أجَّرها لغيره واستقرَّ في المدينة، تماماً كما كان يفعل قبل القانون. جعلها صنارةً يصيد بها جهدَنا، ويتاجر بمحصولنا، ويتركنا فقراء كما كنا. أرضي صغيرة وفقيرة. هل أترك الأرضَ له أم آخذها وأشتغل فيها وأكسر الصنارة؟

آدم : منذ متى استوليتَ عليها؟

حمدان : منذ سنوات. وكان يعلم أني استوليتُ عليها. زرعتُها شجراً وقمحاً. فلما أينع الزرعُ على سوقه، واكتمل الثمرُ على أعراشه، وأزهرتِ الحنطةُ، في كل سنبلةٍ مائةُ حبة، جاء مطالباً بها محتجاً بصك القانون.

آدم : لو تركها ألف عام فهي له. هكذا يقول القانون.

حمدان : ليست أرضَه. لو اشتغل فيها بنفسه لأرجعتُها إليه. سيصير معي ومثلي. لا يتاجر بي ولا يسرق جهدي.

آدم : (إلى الآغا) هل أنت الآغا السابق؟

الآغا : نعم. أنا ابن ذوات وأكابر وملاكين أباً عن جد.

آدم : أهلاً بابن الأكابر. أظن أنهم أصدروا قانوناً أخذوا بموجبه أرضاً لك.

الآغا : نعم.

آدم : ولأنك موجود مع الفلاحين في القرية، أردتَ استغلالهم واستغلالَ الأرض التي كانت لك.

الآغا : بالقانون يا سيد.

آدم : أما زلتَ تعتبر الأرضَ التي أخذوها منك أرضك؟

الآغا : طبعاً أرضي. حتى لو سلبوها مني، فمن حقي استرجاعُها أو الاستفادةُ منها.

آدم : تقصد أن أجدادك أقطعهم إياها السلطانُ العثماني بواسطة الوالي الأكبر.

الآغا : أخذناها بفرمان.

آدم : فهمت القضية. نبدأ الأحكام. أولاً، نطلِّقُ هند من زوجها الأبله ابنِ هذه العجوز الكلبانة.

العجوز : خربتَ بيتي. ألله يخرب بيتك. سأزوِّجُ ولدي أربعَ نساء. سأُحضِر إلى بيتي كلَّ رجال الوالي الأكبر وأجعلهم يركضون وراءك.

(تخرج)

(يهجم تامر نحو هند)

تامر : هند.

آدم : تدخلُ وتعرقلُ سيرَ العدالة؟

تامر : ما علاقتي بالعدالة؟ خطيبتي وأريدها.

آدم : تخطبها من غير موافقتها؟

تامر : موافقة. ومهرُها في جيبي. عشر ليرات ذهبية.

آدم : نسألها. أتحبين تامر يا هند؟

هند : نعم.

آدم : يعني... موافقة على الخطبة؟

هند : لا.

آدم : لماذا؟

هند : إذا فهم قصةَ حسن أقبل.

تامر : ما علاقتي بحسن؟

هند : من يحاربْ دون أن يعرف لماذا يحارب، وينهبْ بيوت الفلاحين، لا يفهمْ قصة حسن. رجلٌ كهذا لا يكون زوجي.

آدم : حينما تتعلم وتفهم، تعال اخطبْها مني. سأجعل مهرَها عشرَ تفاحات دفعة واحدة. تأكلانها في نزهة عند الجبل. انصرف الآن واترك العدالة تأخذ مجراها.

(يخرج تامر)

نوزات : احكم في قضيتي.

الآغا : وقضيتي.

آدم : حاضر. بالوظ. هات طبشورة. ارسمْ دائرةً هنا، ودائرةً هنا. تقدَّمْ يا آغا أنت وحمدان إلى هذه الدائرة. (يشير إلى إحدى الدائرتين) في هذه الدائرة أرضُكما المتنازَعُ عليها. ليحمِلْ كلٌّ منكما شعلةَ نار. تقدمي يا نوزات أنت وهند. هاتي الطفل معك يا هند. قفا في هذه الدائرة والطفلُ بينكما. لِتُمسكْ كلٌّ منكما بإحدى يدي الطفل. والآن. من يُحرقُ منكما الأرضَ تكونُ له. من تشدُّ الطفل إليها من يده يكونُ ابنَها. هذا هو قضاءُ آدم. الفلاح الفقير الذي أنبتته قريةٌ مسكينة من قرانا الضائعة الأسماء على خارطة الوطن. ولأنه يريد لقريته أن تصبح مكاناً إنسانياً يشرق فيه القمرُ على العدل والخير، ولأنه يريد لقريته أن يعيش أبناؤها أناساً يعملون ويتعلمون، يشربون الماء النظيف ويستضيئون بالكهرباء، يأمر المتخاصمين على الطفل والأرض بتبيان الحق على هذا الشكل من القضاء. ابدؤوا.

(الآغا يضحك ويدس الشعلة في الأرض)

(نوزات تضحك وتبدأ بشدِّ الولد إليها)

حمدان : لا أستطيع إحراقَ الأرض. قف يا آغا. إن أحرقتَها لا ينبت فيها زرع.

هند : لا تشدِّي الطفلَ يا نوزات. تنخلع يدُه الطرية.

الآغا : الأرض لي.

نوزات : هذا ولدي. القانون أثبت أنه ولدي.

آدم : قفوا. لم أصدرْ حكمي بعد.

الآغا : نفذنا ما أمرتَنا به.

آدم : بقي إصدارُ الحكم. قانونُ الفقراء لا يُثبتُ أمومةَ امرأةٍ أهملت ولدَها. ولا يُملِّكُ أرضاً لمن لا يشتغل فيها. الولدُ لهند والأرضُ لحمدان. خذي ولدَك يا هند. خذ أرضَك يا حمدان.

حمدان : الأرضُ لي. سأطرد الآغا من القرية كلها. لن أترك له فيها شبراً واحداً حتى لا يمر اللصوص والتجار.

(يخرج الجميع. يبقى
آدم وحمدان)

آدم : ملكتَ الأرض يا حمدان. وسوف تَعمُرُها خيراً وشجراً.

حمدان : بفأسي وتعبي.

آدم : وسوف تصير آغا صغيراً جديداً توسِّعُ أرضَك وتستأجر لها الفلاحين، ويمر منها لصوصُك وتجارُك. فيظهر حمدان آخر يقف ضدك ليملك الأرضَ عنك. فترفعُ في وجهه سندَ الملكية. لكنه بفأسه وتعبه يأخذ الأرض منك. ثم يظهر حمدان ثالث ورابع وخامس وتظل الدائرة تدور. أيُعجبك هذا الوضعُ يا حمدان؟

حمدان : (بدهشة) أهذا ما سيحدث؟

آدم : وتبقى قريتُك فقيرة مهجورة تدمِّرها سنداتُ الملكية. الأرض ليست لك يا حمدان.

حمدان : الأرضُ إذا لم تكن لي ولا للآغا، فهي لمن؟

آدم : الأرضُ للقرية، للجميع. اسمع حكمي يا حمدان. تعاونْ مع فلاحي قريتك. مزِّقوا سنداتِ الملكية. اهدُموا فواصلَ الأرض بينكم. اجعلوها أرضاً واحدة. اشتروا لها الجرارَ وسيارات النقل. اخلقوا تعاونية حقيقية تخدم كلَّ الفلاحين. عند ذلك فقط، تقضون على كل الأغوات والتجار والملاكين، صغيرِهم وكبيرِهم، القدماءِ منهم والجدد. نَفِّذْ يا حمدان.

(يدخل الوالي الأكبر مع معاونه والملاك وجلباط)

الوالي الأكبر: قف. أهكذا تستغلُّ القانونَ يا فلاح؟

آدم : أصدرتُ حكمي.

الآغا : لن نسمح بالتنفيذ.

نوزات : لن نسمح بالتنفيذ.

آدم : (مشيراً إلى جمهور الصالة) هؤلاء الناس سوف ينفذون.

الوالي الأكبر: اقبضوا عليه.

آدم : رائحةُ فمك مازالت كريهة.

(يتقدم المعاون والآغا ونوزات وجلباط والملاك

للقبض عليه. يدخل الفلاح وشحود ويقفان

مع حمدان وهند لحماية آدم. يدخل الراويان)

الراوي2 : أيُقالُ فلاحٌ وجوعانُ النزيفْ؟

الراوي1 : أيصيرُ هذا الأعجفُ المعروقُ فلاحاً يخيف؟

الراوي2 : أيها المتفرجون. آدم أصدر حكمَه.

الراوي1 : بقي تنفيذ الحكم.

الراوي2 : وسواء كنتم فلاحين جاؤوا من القرية إلى هنا، أو عمالاً كادحين يعيشون هنا، فإنكم حين تتحدون، تنفذون الحكم.

============

==========

========

صدرت هذه المسرحية عن "دار الكلمة للنشر" - بيروت - عام 1980

وصدرت الطبعة الثانية ضمن الأعمال الكاملة عام 2002